عزيز نسين

إنَّ رَبُاقِ

مختارات قصصية



ترجمة: د. هاشم حمادي

عزيز نسين

إنَّهُ باقٍ

مختارات قصصية

ترجمة: د. هاشم حمادي.

الطبعة الأولى: ١٩٩٥

إنّه باقٍ

كانت عقوبته الأخيرة قاسية جـداً، وقـد حطـم نفيـه إلـى أحد الأقاليم النائية، بعد خروجه من السجن، قلبه نـهائياً . وفي العاصمة، التي عاد إليها مـن منفـاه، وجـد نفسـه وحيداً، كمـا البومة العمياء، فقد طلقته زوجته، وهو بعد فـي السـجن. كمـا هجره جميع أصدقائه.

إن مـن شـأن أي إنسـان آخـر مكانـه أن يستسـلم لليـأس والقنوط. سيما وليس لديه المال الـلازم لتدبـير شـؤون حياتـه. هل يعقل أنه سيجد نفسه مرغماً على أن يتخلى عن السياسـة، وعن كل ماهو غال على قلبه، وكسـب لقمـة العيـش من أحـد الأشغال الحقيرة؟

قبل كل شيء كان لابد من العثور علـى مـلاذ مـا. ولـم يكن قادراً على دفع أجرة السكن في المركز، حتى على تخوم المدينة كانت الأجـور مرتفعـة جـداً. وهـو يعـرف جيـداً مـدى

صعوبة الحياة على من لايستطيع دفع أجور الشقة: ففي أية لحظة يمكن أن يأتيك قاضي التنفيذ، فيصادر آلة الكتابة القديمة وكل مالديك من سقط المتاع.

ويقشعر جسمه ما إن يتذكر جيرانه، هؤلاء الناس الفضوليين المفعمين بالخوف والكراهية، الذين يتأملونه من رأسه حتى أخمص قدميه كمخلوق تافه غير جدير بالشفقة. إن الأمل يحدوه في العثور على بيت صغير رخيص في ضواحي المدينة، بعيداً عن أعين الناس.

أخيراً، وبعد بحث طويل، عثر على ماكان يحلم به: كوخ صغير، في دسكرة تضم عشرات الأكواخ من هذا النوع، على تلة تبعد عن المدينة ساعة ونصف سيراً على الأقدام.

كان وجود هذا المسكن في الضواحي محط فرحه. ولم يجد صعوبة تذكر في الانتقال إليه: فكل مايملك من حطام الدنيا هو حقيبتان عتيقتان محشوتان بالكتب وبعض الأطمار.

وما إن غطى النوافذ بالجرائد القديمة حتى شعر أنه في منزله، وأنه في غاية السعادة، ولم يبق إلا العثور على «شغلة» ما.

غير بعيد عن مسكنه الجديد كان ثمة بقال صغير يبيع في بيته الحقير، وإلى اليسار قليلاً يستقر الفاكهاني تحت خيمة متداعية. كان يشتري لوازمه منهما، ولم يلبث أن تصادق

معهما. وفي ذات مرة راحا يشكوان له من مصاعب الحياة فالتجارة كاسدة، والزبن قلة، يعدون على أصابع اليد الواحدة، ثم إنهم فقراء، ليس لديهم المال، أما فتح حوانيت في الأماكن المزدحمة فيتطلب المبالغ الطائلة.

بعد عدة أيام من استقراره في مكانه الجديد ظهر بمحاذاة دكان البقال بائع الكعك، كان يأتي بعد الظهر يومياً، ويبقى حتى حلول الظلام.

ولم يلبث أن انضم اليه بائع الذرة الصفراء، وأمام خيمة الفاكهاني ظهر شخص يحمل صندوقاً مغطى بالزجاج ـ إنه بائع الحلويات الشرقية.

ومن ثم ظهر «البويجي» فباعة الشراب والحلوى. وتحت مظلة عتيقة استقر «الكندرجي»، وبين البقال والفاكهاني امتدت خيمة المقهى الصيفي.

وعقب ذلك كله ظهر نوع من البازار الشرقي أمام كوخه، وكان الكناس يجد لنفسه العمل الكافي ليغطي دوامه من الصباح حتى المساء، وازداد عدد المارة، ودبت الحياة في الجوار، ولم تبق في البيوتات المجاورة زاوية واحدة لم تؤجر، وهي التي كانت قبل قدومه خاوية على عروشها.

ولاتسل عن سعادته وهو يرى الحياة تنبعث هاهنا، كما ينبجس النبع في الأرض اليباب، فيحييها بعد موات. كل شيء كان يجري على أحسن مايرام، باستثناء العثور على العمل،

فقد باءت كل جهوده الحثيثة بالفشل، وكم من مرة خيل اليه أن الحظ بدأ يبتسم له، لكن ماإن يعرف أرباب العمل سوابقه من الشرطة، حتى يطردوه خارجاً. ولما كان جميع أصحابه على شاكلته، لايملكون مايقوم بأودهم، فلم يكن لديه من يمكن أن يستدين منه. وبهدف توفير أجور السكن قرر الانتقال للإقامة مع أحد أصحابه في المدينة. وقد اتفق واياه على ذلك. بيد أنه كان مديناً، وإن بمبلغ غير كبير، للبقال والفاكهاني والباعة الآخرين، ولابد قبل مغادرة هذا المكان أن يسدد لهم ماعليه من دين.

وفي مساء أحد الأيام، وبينما هو جالس يفكر بالأغراض التي يمكن أن يبيعها للانتقال الى المكان الجديد، قرع الباب.

كانوا ثلاثة: البقال، الفاكهاني وصاحب المقهى... ولاتسل عن ارتباكه، وهو يدعو ضيوفه إلى غرفته الحقيرة الأثاث:

- عفوا فليس لدي ما أقدمه لكم.

- بسيطة - قال البقال، وهو يبتسم - لقد جلبنا معنا بعض الأغراض، هاك القهوة، وهاك السكر - ثم وضع عدة أكياس صغيرة على الطاولة.

راح ينظر اليهم وقد عقدت الدهشة لسانه.

ماذا يمكن أن يعني هذا؟ حين دخولهم أيقن أنهم أتوا في طلب الدين، لكن لماذا جاءوه بهذه الهدايا؟

وسأل الفاكهاني:

- سمعنا أنك تنوي الانتقال من هنا، فهل هذا صحيح؟

- صحيح، لكن كيف عرفتم بذلك؟

فرد صاحب المقهى بمعنى خفي:

- نحن نعرف كل شيء...

- كونوا مطمئنين، فلست أنوي الهرب، ولسوف أدفع للجميع...

- من العيب أن تتحدث عن هذا ياعزيزي! فهل يستعجلك أحد في تسديد الديون؟

وقال البقال:

- لاداعي للحديث عن ذلك ياأفندي، إنه مبلغ تافه جداً.

- فيما يتعلق بديني - قال الفاكهاني - فأنا مسامح به، ولن أطالبك به أبداً، حتى أنني لن آخذه في حال أردت تسديده...

- لماذا؟

- إنك لاتعرف قيمتك عندنا...

- لكم غمرتنا بأفضالك...

- استغفر الله... - بالكاد استطاع النطق بهذه العبارة، وهو يشعر أنه يكاد يختنق من فرط التأثر.

إذن فهم يعرفون كم ضحى من أجل الشعب، بينما هو كاد يستسلم لليأس والتشاؤم. هل يجوز التخلي عن هؤلاء الناس؟

- لاتغادر هذا المكان! إننا نتوسل اليك - قال صاحب المقهى.

وأضاف الفاكهاني بتذلل:

- نعم جئناك طالبين البقاء.

- ليس في اليد حيلة، فلا طاقة لي على دفع أجور السكن...

- نحن نعرف - قال الفاكهاني - نحن نعرف كل شيء. ولقد قررنا، نحن التجار المحليين، التبرع بدفع أجور سكنك، المهم أن لاتغادرنا.

وترقرقت عيناه بالدموع. وكاد قلبه يرقص فرحاً - للمرة الأولى منذ سنوات طويلة من مقارعة الحرمان.

- كلا، كلا، لاأستطيع القبول بذلك. فأنا لا أعمل، وأجد صعوبة في العيش، لسوف أقيم مع صاحبي.

ومن جديد تكلم صاحب المقهى:

- منذ عدة أيام وشغلنا الشاغل، نحن التجار المحليين، هو كيف نساعدك. كان ذلك مدار تفكيرنا وحديثنا، مهما بلغ حجم نفقاتك فإننا نتعهد بتغطيتها... المهم أن لاتسافر .... لاتغادرنا... إننا نتوسل إليك...

بالكاد تمالك نفسه من الاستسلام للبكاء. مهما كثرت الأقاويل فإن تطوراً نوعياً قد حدث في البلاد ـ حتى التجار بدأوا يستيقظون من السبات السياسي. إذن فنضاله لم يكن عبثاً. فحتى عدة سنوات خلت لم يكن أمثال هؤلاء يلقي عليه التحية حتى.

ـ شكراً جزيلاً. أشكركم، لقد غمرتموني بمعروفكم. ولكنني لا أستطيع قبول مساعدتكم...

وعاد الضيوف يتوسلون إليه من جديد.

ـ إن هذا المسكن لايليق بك ـ قال البقال ـ يستحيل العيش فيه.... غير بعيد من هنا يوجد منزل من طابقين، الطابق الثاني معروض للأجرة. إنه مزود بحمام ذي مغطس و... نحن سنستأجره لك...

وتكلم صاحب المقهى:

ـ لانريد أن تغادر حينا، بودنا أن تبقى بين ظهرانينا إلى الأبد...

ـ لست أفهم شيئاً. لكن ماحاجتكم إلي؟

ـ كيف لا ياأفندي فبفضلك تحسنت أحوالنا، نحن التجار...

ـ استغفر الله... فأنا لا أشتري إلا القليل...

ـ لسنا نقصد مشترياتك ... إنها لاتذكر... المهم مايشتريه الآخرون... لقد جلبت لنا السعادة... فقبل قدومك لم

يكن يتردد على دكانتي سوى ثلاثة ـ أربعة زبائن في اليوم، أما الآن فلا أجد الوقت لخدمة الجميع: أصبحت الأمور لدينا كما في المدينة....

ـ كل ذلك بفضلك ـ قال البقال مؤيداً.

ـ أشفق علينا ـ قال صاحب المقهى ـ إذا ماغادرتنا ستتوقف الحياة هنا، وسأضطر لإغلاق المقهى، الذي وضعت فيه «تحويشة العمر».

ومن جديد عادوا يتوسلون إليه بصوت واحد أن يبقى.

ـ شكراً لكم. لكن ماالذي جعلني أستحق منكم كل هذا الاهتمام؟ ماهذا الذي فعلته لكم لكي تتوسلوا إلي بهذا الشكل أن لا أغادر هذا المكان؟

وتكلم الفاكهاني:

ـ أوي! لقد حققت المعجزة، فما إن سكنت هذا الكوخ حتى تقاطر إلى هنا فوج كامل من رجال البوليس لمراقبة حركاتك وسكناتك. إن رجال البوليس يتنكرون في زي الزبالين، البويجية... ثم جاء الرجال المتنكرون في زي التجار. إنهم يراقبون عمل الفوج الأول، أما عملهم هم، الفوج الثاني، فمراقبة رجال الفوج الثالث.... وهكذا ضرب الازدحام أطنابه عندنا، واختلط الحابل بالنابل.

وأضاف البقال:

- في البداية كانوا يسألوننا عنك، ويجمعـون المعلومـات عن كل ماتقوم به.

- كانوا يدخلون دكاكيننا، ويشترون بعض الأغـراض ـ قال الفاكهاني.

- فقط بفضلـك بدأت أحوالـي تتحسـن. فهـم لايغـادرون المقهى حتى ساعة متأخرة من الليل، يطلبون القهوة، وهـذا يدر علي الربح.

ويسأل باسى:

- إذن فكل هؤلاء بوليس؟

- هنـاك رجـال بوليـس، ورجـال آخـرون... يكفـي أن يجتمـع عشـرة فـي مكــان مــا حتــى ينضـم إليهـم خمســون آخرون....

- وإذا ماغادرت هذا المكان فلسوف تتوقـف الحيـاة مـن جديد... كل رجال البوليس سيغادرون في اثرك.

- وفي ذلك هلاكنا ـ قال البقال.

- هلا أشفقت علينا، نحن المساكين ـ قال الفاكهاني.

أما صاحب المقهى فراح يتوسل:

- ابق فترة أخرى، أقوم خلالها بتوفير المال.

وفكـر ملياً. أنّـى أذهـب الآن، سـوف تتكـرر الأمـور نفسها.

ـ طيب ، لسوف أبقى، شرط أن تأخذوا هذا كله ـ ثم مد للبقال بأكياسه الأربعة.

وسأل الفاكهاني مودعاً:

ـ هل نستطيع زف هذه البشرى للجميع؟

ـ نعم لن أسافر... لكني لست بحاجة إلى أي شيء منكم...

ـ جازاك الله خيراً.

الفرنجي برنجي

اسع ياأخ: إن تربية الشباب في الريف لدينا عمل دقيق ومعقد.

فإذا كان الشاب كثير المشاكل، ولاينوي أن يعود الى جادة الصواب فـ «بهدله» قليلاً، فإن لم يؤت ذلك أكله لقنه درساً لاينسى، أي اجلده كما يجب.

فإن لم يرعو فادفع بهذا الحمار الأرعن إلى العسكرية، فإن عاد من الجيش وهو لايزال على شاكلته القديمة فزوجه. وإن لم يضع الزواج عقله في رأسه، فاركله في مؤخرته، ولينقلع من القرية. هذه هي الوسيلة الأخيرة.

يكفي أن يطرد هذا العاق من منزل أبويه حتى يأتي إلى القرية المجاورة، وهو إنسان آخر تماماً، لكأنه ولد من جديد.

لقد صدق آباؤنا وأجدادنا بقولهم: «لانبوة لامرىء في قريته». قول حكيم. فهل سمعت ياأخ أن سكان إحدى القرى أو المدن في أي مكان، أو زمان، قد اعترفوا بفضل أحد أبناء قريتهم أو مدينتهم؟ لم يسبق أن حدث هذا، ولن يحدث. لنتذكر النبي نوح فلم يعترف به أبناء قريته نبياً، وكانوا يرددون على مسامعه بصراحة: «صحيح أنك نوح، لكنك لست بالنبي» علماً أن نوحاً، ياأخ، كان نبياً عظيماً.

من جديد أقول لك إذا لم ينفع الترغيب ولا الترهيب في إعادة الأرعن الى جادة الصواب فلا تتوان عن اللجوء الى العصا، فإن فشلت في تقويمه فارسله الى العسكرية، حيث يتحول الذئب الكاسر، تحت قبضة العريف، الى كلب وديع. وإذا ماعجزت قبضة العريف عن ذلك فما عليك إلا أن تزوج الأحمق، فلا يكبح جماح الجواد الأرعن إلا الجوع، وأما جماح الشاب المتمرد فلا تكبحه إلا الزوجة. وإذا مافشلت هذه فلا يبقى أمامك إلا أن تركله في مؤخرته وتطرده من دارك إلى حيث القت..

كان يعيش في قريتنا شاب اسمه مراد، الملقب بـ «الخنزير»، ولم يكن ثمة على وجه الأرض من يجاريه في الخسة والدناءة. حتى إن ابنك ياأخ بالمقارنة معه ملاك حقيقي. لم يكن مراد قد بلغ العاشرة من عمره حين بدأ يوسع أخته الكبرى فاطمة وأمه العجوز ضرباً بالعصا. لقد حول

هذا الشيطان حياتهما إلى جحيم لايطاق. وحاولت الأم والأخت معه بالحسنى:

- إعقل يامراد، إعقل يابني، لاداعي للشيطنة.

لكن عبثاً، فقد أصم أذنيه عن كلام الجميع، واستمر في قطع أذيال الكلاب، ونهب الحواكير، وتخريب البساتين، وتسلق الأسطحة، وصب الماء في المداخن.

كان باختصار يقوم بما لايخطر للشيطان نفسه ببال.

ففي أحد أيام الجمعة ذهبنا إلى الجامع. وكان جميع سكان القرية قد جاءوا، ولم يأت الإمام بعد. ورحنا ننتظره على أحر من الجمر. وأخيراً ظهر إمامنا. وكان كل من يراه لايستطيع أن يكبت نفسه من الاغراق في الضحك.

فقد كان وجه الإمام شبيها بقوس قزح: كان كله مخططاً بالأخضر والأصفر والنيلي والأحمر. وبعد أن اجتاز الإمام عتبة المسجد سلم علينا:

- السلام عليكم!

لكن الجميع ظل يقهقه، ولم يستطع أي منا أن ينطق بكلمة.

فما الذي حدث؟ لقد استلقى الإمام عند الغدير، فأخذته سنة من النوم. وهنا جاء الخنزير مراد، وبكل هدوء لطخ وجهه بالألوان، وقد أمسكنا به، وسألناه، بعد أن «أخذ حصته»:

ـ لماذا فعلت هذا بخادم الرب أيها الخنزير؟

فرد بقوله:

ـ لقد قمت بذلك كي تعرفوا أن هذا الشيخ لايتوضأ، ولو كان مسلماً صادقاً لتوضأ قبل أن يأتي المسجد، وإذن للاحظ أن وجهه ملطخ بالأصباغ.

وهنا أدركنا أن شيخ جامعنا لايتقيد بتعاليم القرآن.

لكن هذا لم ينقذ الخنزير مراد من «الفلقة» فقد طرحناه أرضاً، وأكل علقة ساخنة.

لكنه عاد إلى مقالبه، وكأن شيئاً لم يكن.

آه ياأخ، أي شيء لم يقم به الخنزير مراد، حتى إنني لاأستطيع أن أروي لك كل أفعاله. فحين بلغ الرابعة عشرة قام الحقير بخطف الجدة فاديك، وهي امرأة أرمل، كانت في السبعين من عمرها.

خرج أهالي القرية عن بكرة أبيهم للبحث عنهما، وبعد ثلاثة أيام عثرنا عليهما في مغارة الدب، على قمة الجبل الأقرع. كان الخنزير مراد متربعاً على الأرض، وأمامه «بطحة» العرق، هو يصفق، وهي تغني ، يالها من جلسة رومانسية...

وطبعاً فقد أوسعنا الشقي شتماً وبصاقاً وضرباً.

أما هو الخنزير، فقد راح يحاول تبرير فعلته:

ـ إنما أردت أن أرفه عنها. إن أيا منكم لايتنازل حتى لإلقاء التحية على الجدة فاديك. أما أنا فقد اشفقت عليها، وخطفتها...

وهنا ارتمت الجدة على أقدامنا، وراحت تتوسل:

ـ اتركوا الفتى. فأنا أغفر له... إنه يصلح لأن يكون ابن حفيدي. لست غاضبة منه. إن آلاف العجائز على استعداد للتضحية بأنفسهن من أجل أمثاله. اتركوه، أرجوكم.

أفلت ابن الـ.... من قبضتنا، ثم ركن الى الفرار.

وصرخ من بعيد:

ـ لماذا تحشرون أنوفكم في مالا يعنيكم، و«مادام القاضي راضي»، فما دخلكم أنتم؟

نعم ياأخ إن العالم لم ير للخنزير مراد مثيلاً في الدناءة والخسة.

ففي إحدى الليالي استيقظنا على أصوات استغاثة ـ «حريق» وحين خرجنا رأينا السماء مشعشعة فوق القرية، والشوارع معبأة بالدخان. إنه حريق فعلاً. وبحثنا عن مكانه ـ إنه حظيرة اسماعيل، حيث يحتفظ بالتبن. هرعت القرية شيبا وشباباً، رجالاً ونساءً، باتجاه حظيرة اسماعيل، الذي كان يخدم في العسكرية منذ عامين، تاركاً زوجته وحيدة في المنزل. كانت ألسنة النار تندلع في الحظيرة من الجهات الأربع.

وللحال أيقنا أن ذلك من صنع الخنزير مراد. فأمسكنا به، وسألناه:

ـ لماذا أحرقت الحظيرة أيها الخنزير؟

فأجاب:

ـ على رسلكم، الآن ستعرفون السبب فيبطل العجب.

وبغتة تردد من داخل الحظيرة صوتان، رجل وامرأة :

ـ ساعدونا، النجدة، إننا نحترق، أنقذونا..

ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى برز من النافذة مختار القرية وزوجة اسماعيل.

وصاح أحدنا يسأل المختار:

ـ هيه يامختار، لماذا دخلت حظيرة هذه المرأة في غياب زوجها؟

وتردد جوابه:

ـ ياإلهي، لقد هرعت لإنقاذ جارتنا، زوجة الجندي المسكينة من الحريق. أنقذونا، فنحن نحترق.

لم تكن النافذة عالية عن الأرض، فصاح أحدنا:

ـ هلا قفزت يامختار.

فرد بقوله:

ـ لاأستطيع لقد احترقت ثيابي، فهلا ذهب أحدكم إلى بيتي وجاءني ببعض الثياب .

وعادت زوجة الجندي إلى العويل:

ـ ساعدونا ياجيران، إننا نحترق. هاتوا لي بعض الثياب.

وصاح الخنزير مراد:

ـ أيها الناس! لاتعطوهما الثياب، وإلا أحرقت كل بيوت القرية وحظائرها، وحولتها إلى رماد.

وكنا نعرف أنه لايتورع عن ذلك.

لقد ترصد الشيطان المختار وزوجة اسماعيل، فسرق ثيابهما، وأضرم النار في الحظيرة.

وعاد المختار إلى توسلاته، إذ كيف يستطيع القفز من الحظيرة، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن زوجة الجندي، فكيف ستخرج بثوب حواء أمام الشباب والرجال والنساء والشيوخ والأطفال؟

ولحسن حظ الخليلين أو لسوئه، فقد عثرا في الحظيرة على جل وبردعة حمار، فراحا يتقاتلان عليهما، يريد كل منهما الاستئثار بهما لنفسه:

ـ دعيني ألبسهما.

ـ كلا، بل أنا، إذا كنت رجلاً حقيقياً، فتخل لي عنهما، واقفز من النافذة.

ـ لكنني أيتها الحمقاء كبير القرية، ولا يجوز أن يراني الفلاحون على هذه الشاكلة. أعطني ولو هذا «الجلال».

وهنا امتدت ألسنة النار، وكادت تلامس شعر زوجة الجندي، فزعقت:

- أيها المسلمون! أيها الرجال! ديروا ظهوركم. حرام أن ينظر المرء إلى عورة زوجة جاره.

وقفزت زوجة الجندي من النافذة وركضت إلى البيت، وقد غطت عورتها بيديها.

وفي أعقابها قفز المختار، وقد غطى جسمه بالجل وبردعة الحمار، ثم أطلق ساقيه للريح باتجاه منزله.

وقد نسي الفلاحون الحريق، وكادوا ينقلبون على قفاهم من الضحك.

آه ياأخ! يستحيل أن تأتي على كل مقالب هذا الخنزير، إنه كما وباء الطاعون الأسود.

أخيراً رشونا القاضي فزاد على عمر الخنزير عامين، وأرسلناه إلى الخدمة العسكرية.

حينذاك فقط تنفست القرية الصعداء. وكان الجميع على ثقة أن قبضة العريف ستعيد الخنزير إلى جادة الصواب، فهي تحول الشيطان الرجيم إلى حمل وديع، وفجأة، وبعد حوالي نصف عام، سمعنا أن الخنزير قد رفع إلى رتبة عريف. كان لهذا النبأ وقع الصاعقة على أهالي القرية. فمن سيروضه الآن؟ وإن هي إلا بضعة أشهر حتى ورد خبر آخر مفاده أن الخنزير قد رفع إلى رتبة رقيب. ورحنا نضرب أخماساً

لأسداس، فإذا ما استمرت الأمور على هذا النحو فلن يلبث خنزيرنا أن يرفع إلى رتبة نقيب أو رائد. وكان هذا ماسيحدث فعلاً لو أن مدة الخدمة كانت خمس سنوات لاسنتين.

وهكذا فقد سرح مراد من الخدمة، وعاد إلى القرية، ومذ عاد تجدد مسلسل المقالب والمصائب، وتحولت حياتنا إلى جحيم لايطاق، وأسقط في يدنا، فإذا كنا قد عجزنا عن التغلب عليه وهو مجرد «الخنزير مراد» فكيف نستطيع ذلك الآن وقد أصبح «الرقيب مراد»!

وبالفعل فقد راح مراد يعيث في القرية فساداً.

ولانكاد نخرج من ورطة حتى يوقعنا في أخرى أمر وأدهى.

واجتمعنا نحن الفلاحين في المقهى، ثم أجمعنا على تزويج هذا الأرعن لعل وعسى.

وأعلن مراد:

- إنني الآن الرقيب مراد، ولسوف أتصرف كما يحلو لي. إنني موافق على الزواج، لكن أنا من سيختار الفتاة، التي تعجبني. أما بالنسبة للمهر فلن أدفع لأهلها قرشاً واحداً. فليكن: إنني موافق على الزواج بابنة شكري الحانوتي.

وشكري واحد من أعيان المنطقة، وابنته وحيدة، معروفة بحسنها وجمالها. وقد ذهب جميع أوادم القرية إليه طالبين يد ابنته لخنزيرها.

ـ لاتردنا خائبين ياشكري آغا. إرأف بحالنـا! إن حياتنـا وموتنا بين يديك. فإن لن نتعاون كلنا علـى كبح جماح مـراد سنجد أنفسنا مرغمين على ترك القرية، بحثاً عـن مـلاذ آمـن. قل لنا كم تريد مهراً لابنتك، نجمعه لك، ونضعه بين يديك.

وهكذا فقد زوجنا هذا الخنزير.

لعلك تظن أن الزواج قوم سلوكه! أبداً فقـد ازداد سـوءاً على سوء، فبينما كان الفلاحون يكدون ويعرقون فـي الحقـول من الصباح حتى المساء كان هو يعاقر الخمـرة، ويتسكع فـي الطرقات، وهو لايكف يتوعد:

ـ لسوف تحـاكمون علـى إرسـالي إلـى العسكرية زوراً وبهتاناً، لسـوف أخبر السلطات بكل مكـائدكم. فحين يمـوت الفـلاح الأعزب تتستـرون علـى وفاتـه، ولا ترفدونـه قبـل أن تبيعوا كل أراضيه وكأنه حـي يـرزق. وحيـن تمـوت الأرمـل الوحيدة يسارع أحدكم فيزور صك الزواج بها، ويستولي على أملاكها، نصـابون. لسوف أجعلكم عبرة لمن يعتبر. إلا إذا تابعتم تقديم الطعام والشراب لي مجاناً.

فنروح نتوسل اليه:

ـ طيـب. طيـب يـارقيب مـراد، لسوف نقـوم بإطعـامك ونقدم لك المشروب، المهم أن تسكت.

لكن الخمرة تطلق عقال اللسان. وهكذا فقد استمر مـراد يشرب على حسابنا، ويوسعنا شتماً وذماً.

وفي مساء أحد الأيام اجتمعنا به في المقهى، وسألناه:

- قل لنا يابني، يارقيب مراد، ماالذي تريده؟

فرد بقوله:

- أريد أن أصبح مختار القرية.

ياللوقاحة! أن ننتخبه مختاراً للقرية، يعني أن نجعل اسم قريتنا مضغة في الأفواه.

أثار رفضنا ثائرته.

- طيب إذا كنتم لاتريدونني لكم مختاراً، فاختاروني لكم إماماً.

أعوذ بالله هذا ماكان ينقصنا أن نصلي في الجامع وراء هذا الكافر!

وازداد مراد شراسة، فراح يخطف النساء، وينهب البيوت، ويسرق النعاج، ويحرق العنابر. وكان لايكف يتوعد:

- اجعلوني لكم إماماً. وإلا حولت حياتكم إلى جحيم.

ولقد حولها فعلاً.

ومن جديد عقدنا اجتماعاً قررنا فيه بالاجماع: «الأفضل أن نتغدى به قبل أن يتعشى بنا». وقد سارعنا الى قرن القول بالفعل. فاقتحمنا منزله ليلاً، وربطناه، ثم قمنا بجره إلى الجبال، وهناك أشبعناه ضرباً وركلاً، حتى أوشك أن يفارق الحياة.

وكنا، ونحن نكيل له الضربات، نقول له:

ـ هاك من أجل المختار، وهاك من أجل الإمام.

وحتى الآن لا أستطيع أن أفهم كيف نجا بجلده. إنه بسبع أرواح.

ابتعد عنا مسافة آمنة، ثم قال بصوت مبحوح:

ـ ومع هذا سوف أصبح إماماً أيها الحمير. سوف ترون.

على هذا النحو تخلصنا ـ ياأخ ـ من هذا الوغد . ومع مر الأسابيع والشهور بدأ النسيان يطوي مقالب الخنزير مراد شيئاً فشيئاً.

حل شهر رمضان المبارك فدعونا أحد الأئمة ليقيم عندنا طيلة شهر الصوم. لم يكن إنساناً، بل قديساً. فأحببناه واحترمناه، لم يكن مجرد واعظ، بل شيخ الوعاظ، كل كلمة يقولها هي جوهرة الحكمة، لابل الحكمة مجسدة.

مع نهاية شهر الصوم بدأنا نتوسل إليه:

ـ لاتغادرنا، ابق عندنا، نعطك كل ماتطلب. ابق في قريتنا، وكن لنا إماماً.

ولاتسل عن الفرحة التي عمت القرية حين زفت إليها بشرى بقائه.

مر شهر. وفي أحد الأيام حل على قريتنا ضيف من إحدى القرى المجاورة، التي لاتفصلها عن قريتنا إلا ساعة مسير. ولم يكد ضيفنا يدخل المسجد لأداء صلاة الظهر، حتى

تعالى الصياح والصراخ داخل المسجد. فهرعنا إلى هناك لمعرفة جلية الأمر، ولك أن تتصور مدى دهشتنا وسخطنا حين رأينا الضيف قد ألقى بإمامنا أرضا وراح يوسعه ضرباً وركلاً. ولولا وصولنا آنذاك لكان قد قضى على المسكين لامحالة.

انقضضنا على هذا الضيف الوقح، انقضاضة رجل واحد، وصحنا به بغضب:

- كيف جرؤت فرفعت يدك على هذا القديس؟

فأجاب باحتقار:

- أي قديس هذا؟ كم من السنوات عذبنا هذا الآثم.

لقد أذاقنا الأمرين. لكن يبدو أنه استطاع، بعد أن أطلق لحيته، أن يغرر بكم، ويتظاهر بأنه إمام. لو أن الجميع خدعوا به ماخدعت به أنا، ففي الصيف الماضي اختطف زوجتي، وفر بها إلى الجبال، ولم نعثر عليهما إلا بعد أسبوع كامل من البحث. اتركوني أصفي حسابي معه، لسوف أقتله الحقير.

لكننا أوسعنا الضيف ضرباً من جديد، ثم تركناه يذهب في حال سبيله. أما الإمام فقد رحنا نطيب خاطره، ونحاول تهدئته واسترضاءه.

ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى جاءنا من القرية نفسها فلاح آخر. وما إن وقعت عيناه على إمامنا في المقهى،

حتى انهال عليه يوسعه ضرباً بعصا غليظة، كان يسوق بها حماره، وبالكاد استطعنا إنقاذ قديسنا من عصاه.

وراح الفلاح يزعق:

ـ اتركوني. دعوني أقضي عليه، فلقد سرق نعاجي، وباعها في المدينة. إن هذا الحقير من قريتنا، حيث لاتجد بيتاً لم يعان بسببه. لقد عرفته على الرغم من تنكره بهذه اللحية والعباءة.

لكم نحن معشر الفلاحين جهلة ياأخ. فلا أحد يريد أن يفهم أن الناس قد يتشابهون مع بعضهم، تشابه قطرتي ماء. فالله سبحانه وتعالى خلق الناس أزواجاً. ومع هذا فإن جميع من كان يأتي إلى قريتنا من القرية المجاورة، كانوا ينقضون على إمامنا، ولم نجد أمامنا في النهاية من مخرج إلا أن بدأنا نخبىء قديسنا في حرز حريز، وإلا لكان جيراننا قد قضوا عليه فعلاً.

هل رأيت ياأخ الورطة التي يمكن أن يقع فيها الانسان الرائع إذا ما كان شبيهاً بآخر.

وفي صباح أحد الأيام استيقظت القرية على زعيق يصم الآذان. ولم نكد نلقي نظرة حتى فوجئنا بجيراننا من القرية الأخرى يتبخترون على صهوات جيادهم، وهم يلوحون بالعصي، مهددين متوعدين.

وصاح أحدهم:

- إما أن تسلمونا محموداً الذئب، وإما أن نعلن عليكم الحرب.

وسألناه:

- ولكن من يكون محمود الذئب هذا؟

- ذلك الوغد، الذي جعلتم منه إماماً لكم.

- على رسلكم، دعونا نتحدث بهدوء.

ضرب الفرسان طوقاً حول القرية، خشية أن يتمكن إمامنا من الهرب، وبعد ذلك اختاروا مبعوثيهم إلينا.

وبدورنا اخترنا عدداً من «الأوادم» وبدأت المفاوضات.

وقلنا فيما قلنا للمبعوثين:

- تستطيعون ياأخوان أن تحرقوا قريتنا، وتسووها بالأرض، لكننا لن نسلمكم الإمام مادام واحد فينا حياً. يبدو أن هناك خطأ. لقد خلطتم بين قديسنا وبين ذلك الذي تسمونه محموداً الذئب. فالناس تتشابه، ويخلق الله من الشبه أربعين. أن نسلمكم إمامنا لتمثلوا به خطيئة كبرى. معاذ الله أن نفعل ذلك. فأمثاله في أيامنا هذه قلة. ولولاه وأمثاله من الأخيار، إذن لما بقيت لهذا العالم الخاطيء قائمة.

وعلى هذا رد أحد المبعثوين بقوله:

- إنكم لم تروا القديسين الحقيقيين. لو أنكم رأيتم إمامنا الحاج مراد، وسمعتم وعظه، إنه قديس فعلاً، وكل كلمة يلقيها هي الحكمة بعينها. ذقنه حتى خصره، ولايخطو خطوة واحدة

إلا وهو يتوضأ ويصلي. إذا كان في العالم، ولو قديس واحد، فإن هذا القديس ليس سوى الحاج مراد.

ـ مهلاً، مهلاً. عن أي مراد تتحدث؟ لعلك تقصد مراد الخنزير؟ هل عيناه زرقاوان؟

ـ نعم.

ـ سبابة يده اليسرى مقطوعة؟

ـ صحيح.

ـ على طرف أنفه ثألولة؟

ـ فعلاً.

وهنا صاح فلاحو قريتنا صيحة رجل واحد:

ـ لماذا لانحرك ساكنا؟ ماالذي ننتظره؟ هيا بنا نمسك بهذا المحتال. الموت للخنزير. إذن لقد لجأ إلى القرية المجاورة، وادعى أنه إمام

وجاء دور جيراننا لكي يخففوا من سخطنا:

ـ للتو كنتم تتحدثون عن تشابه الناس فيما بينهم. إنكم مخطئون، فالحاج مراد قديس فعلاً.

ـ أن يكون خنزيرنا مراد قديساً؟ هذا من رابع المستحيلات.

وأوشكت القريتان أن تنتقلا من التقاتل بالألسن إلى تبادل الطعنات بالسلاح الأبيض، وفاحت رائحة الشر وانتشرت.

وعلى حين غرة تكلم الحانوتي شكري:

ـ اسمعوا! الآن أدركت كل شيء. فخنزيرنا مراد أطال لحيته، وأصبح إماماً في القرية المجاورة. بينما أصبح ذئبهم محمود إماماً لدينا. فما الداعي للخلاف؟ كل شيء على مايرام. هم راضون عن الخنزير مراد، ونحن راضون عن الذئب محمود. وإذا ماطردناهما الآن سيعيثان في القرى فساداً. ثم إننا لانعرف أي نوع من الأئمة سيأتينا بعد طردهما. ولذا دعونا نتصالح، وسنعتبر أن شيئاً لم يحدث. ليبق إمامنا القديس عندنا، وليبق إمامكم لديكم.

بعد ذلك قدمنا للمبعوثين الشاي والقهوة، وسقينا العيران للفرسان، ثم ودعنا جيراننا بالسلامة.

ولدى وداعهم لنا لم يتمالكوا أنفسهم من الاعراب عن الدهشة

ـ إذن فنحن لم نعرف ذئبنا محموداً على حقيقته، ولم نقدره حق قدره؟.

وبدورنا أعربنا عن أسفنا:

ـ كيف استطعنا طرد إنسان فضيل كالخنزير مراد من قريتنا؟ واضح أننا أخطأنا.

وحتى يومنا هذا لايزال مراد إماماً في القرية المجاورة، حيث لايكف فلاحوها عن التفاخر به، وأما نحن ففي غاية السعادة لأن لدينا هذا القديس.

هكذا ياأخ. لاتقلق إذا ماشذ ولدك عن الطريق القويم، فذلك لايعني أن كل شيء قد ضاع. فهو ليس بأسوأ من خنزيرنا مراد. قاتله، اضربه، فإن لم ينفع ذلك ارسله إلى العسكرية، فإن لم يرعو، زوجه، وإن فشل هذا أيضاً، أوسعه ضرباً، ثم اطرده من البيت. وفي القرية المجاورة سيستقبلونه بالأحضان، ومن يدري فقد يصبح لديهم مختاراً، أو إماماً.

الصافرة السحرية

رحت أضرب في أرجاء المدينة بحثاً عن عمل. لكن يبدو أن الحظ تخلى عني نهائياً، وأدار لي ظهره. ومن المعروف أن الأفكار الغريبة تدخل رأس الانسان حين يكون في وضع يائس. «ايه، لو كنت امرأة، خطر لي، إذن لما اضطررت للبحث عن العمل طويلاً».

كنت مستغرقاً في تأملاتي الحزينة وأنا أيمم وجهي شطر «ضولما باختشي»، وكانت الشوارع، المجاورة للاستاد الرياضي، تغص بالمشجعين. كان الازدحام شديداً لدرجة أنه يستحيل عليك أن تجد لنفسك موطىء قدم. وتساءلت بيني وبين نفسي بدهشة: «وكيف يستطيع الناس شق طريقهم إلى الاستاد في مثل هذا الإزدحام؟» كان السيل البشري يدفعني تارة إلى الأمام، وأخرى إلى الخف. وبين الفينة والأخرى

كنت أجد نفسي مرغماً على الوقوف في مكاني، وأدور كما في الدوامة، وأنا محاصر من الجهات الأربع.

بالتدريج فقدت أي أمل في الخروج من هذا السيل البشري الجارف. ولا يخطرن لكم ببال أنني استسلمت دون مقاومة.

كلا، لقد أمضيت ساعة كاملة وأنا أدفع وأدفش، لكن كل جهودي ذهبت أدراج الرياح.

وبدأ اليأس يدب إلى نفسي. وبدأ الخوف يستولي علي من أنني لن أخرج من هنا أبداً، وأنني ملاق حتفي هاهنا.

وعلى حين غرة تردد صفير يصم الآذان.

حتى الأطرش منذ الولادة يسمعه. وللحال، وكما لو أن يد ساحر امتدت، بدأت الكتلة البشرية الكثيفة تنشق. وعبر هذا الممر المتشكل كان يتبختر رجل وفي فمه صفارة. ولم أكد أتمعن في وجهه حتى... لكنه موسانا! وزعقت:

ـ موسى ـ ! ـ ! ـ !.

ولو كنت في ظروف أخرى إذن لناديته على الأرجح: «هيه، ياصاحبي موسى»، لكن الخوف من الصافرة والخشوع أمامها منعانني من القيام بذلك.

التفت موسى ناحيتي، ثم قبض علي من ذراعي، وجرني وراءه. وفي كل مرة، ما إن يشاهد ازدحاما في طريقنا، حتى يطلق لصافرته العنان، فيفسح لنا الناس الطريق

على عجل، وهم يتدافعون. واستمر الأمر على هذا النحو إلى أن وصلنا مدخل الاستاد. ومن جديد تردد هزيم الصافرة فتنحى مراقب التذاكر جانباً، وهو يقول:

- تفضل بالدخول. أهلا وسهلا.

وتنفست الصعداء، ما إن اجتزنا الباب الدوار، ثم سألت صاحبي:

- اسمع ياموسى. هل أصبحت مديراً عاماً لإدارة التربية البدنية؟ لماذا يفسح لك الجميع الطريق؟

- دعنا مني الآن، وحدثني عن أحوالك. ماذا تفعل الآن؟

- لاشيء. منذ خمسة أشهر وأنا أبحث عن عمل. لكن لا أحد يريد استخدام الرجال. مما دفعني إلى التفكير في التنكر بزي امرأة، فأرتدي الفستان، وأحمر شفتي، وأرسم حاجبي. لكنني، والحق يقال، أقدر موقف أرباب العمل، ولو كنت مكانهم إذن لفضلت البحث عن إحدى الغندورات على أن أستخدم أحد الرجال الأجلاف. ليس لأنني إنسان سيء، فالمرأة والرجل يؤديان العمل الموكل إليهما بشكل جيد، دون أن يتفوق أحدهما على الآخر. لكن حين ترى قدامك امرأة حسناء فإن قلبك يرقص طرباً.

وقال موسى:

- يبدو أنك فقدت عقلك تماماً.

ـ وأنت ماذا تعتقد ـ هل من السهل أن تبقى عاطلاً عن العمل طيلة خمسة شهور؟

هنا بدأت المباراة، ومن البدهي أن حديثنا قطع.

بعد نهاية اللقاء الكروي نهضنا، واتجهنا ناحية باب الخروج. بينما موسى لايكف يصفر شاقاً الطريق أمامنا.

وها نحن وصلنا الساحة.

ـ لنذهب في السرفيس ـ قال موسى.

من السهل أن تقول ـ لنذهب في السرفيس، لكن جرب وجد لنفسك مكاناً. في الساحة كان ثمة جمهور غفير من الناس، وكلهم مثلنا يريدون ركوب السرفيس. فما إن تظهر إحدى السيارات الفارغة حتى يندفع نحوها الراغبون بالمئات.

وقلت لموسى:

ـ على هذه الحالة سنبقى يومين بانتظار دورنا.

فيرد علي بقوله:

ـ انتظر لحظة.

ثم يسحب الصافرة من جيبه، ويوقف أول سيارة عابرة. ولكم أن تتصوروا مدى ذهولي حين رايت الجميع ينفض عنها، حتى إن أحداً لايحاول أن يشاركنا الجلوس فيها.

وجلسنا.

ـ موسى! لعلك أصبحت مدير شرطة المرور؟

لكنه وضع إصبعه على شفتيه أن أسكت..

نزلنا في «نيشان طاش». وأخرج موسى جزدانه، يروم دفع الأجرة، لكن السائق رفض أخذ النقود رفضاً قاطعاً.

ـ «أبوس رجليك» لا أريد شيئاً.

شيء غريب.

وسألته بفضول:

ـ هل هذا السائق أحد معارفك؟

ـ أبداً.

ـ اسمع ياموسى. لعلك أصبحت مدير الشرطة؟

ومن جديد وضع إصبعه على شفتيه.

ـ سأشتري الآن غرضاً، ثم نعود إلى البيت.

أمام دكان اللحام كان يمتد طابور طويل، لاترى له نهاية، ولاتسمع إلا الصراخ والصياح والشتائم، مما ينذر بوشك اندلاع الشجار.

لكن ماإن أطلق موسانا العنان لصافرته حتى توقف الهرج والمرج، وحل محلهما الهدوء المطبق، ووئدت المشاكل، ومن الدكان اندفع اللحام، وراح يدعو موسى للدخول، وهو لايكف ينحني له:

ـ أهلا وسهلاً، تفضلوا.

ـ كيلو لحمة، من النوع الأفضل ـ طالب موسى.

ـ وهل تأمرون شيئاً آخر؟

ـ عندك نخاع؟

ـ هل تكفي أوقية؟

ـ تكفي.

صر اللحام اللحم والنخاع في ورق خاص. ولم يكد موسى يخرج جزدانه حتى اعترض اللحام:

ـ لن آخذ منك النقود يابيه أفندي، لن آخذها منك إطلاقاً.

ـ لعلك أصبحت محافظ المدينة ياموسى؟ ـ سألت صاحبي، بعد أن خرجنا الى الشارع.

غير أنه لم ينبس ببنت شفة، وعاد يرفع إصبعه إلى شفتيه. وأخيراً حلت عقدة لسانه:

ـ لقد اشتريت هذا ليوم غد، أما اليوم فسنتناول طعام العشاء معاً في أحد المطاعم. ألا تحتاج لأي شيء؟

ـ أبداً.

عرجنا على الفاكهاني، ومن ثم على البقال، وفي كل مرة كان موسى يستخدم صافرته، ويغادر محملاً بالأكياس، دون أن يدفع في أي مكان، ولو بارة واحدة.

حين انتهينا من التبضع أوقف سيارة تاكسي، أقلتنا إلى منزله. وهناك ترك أكياسه، ثم توجهنا إلى الكازينو، وبدوره رفض السائق أخذ قرش واحد.

في الكازينو كانت كل الأماكن مشغولة. لكن ما إن أخرج موسى صافرته، حتى إنه لم يلحق أن يصفر فيها، حتى

هرع «الجراسين» نحونا، ومن خلفهم يهرول صاحب الكازينو.

وضعوا لنا طاولة خاصة أمام«البيست»، ودون أن يسألونا ماذا نريد جلبوا لنا الكثير مما لذ وطاب من المازوات.

ـ لعلك أصبحت مفتشاً ياموسى؟ سألت صاحبي .

لكنه لم يرد على سؤالي، بل اكتفى بوضح إصبعه على شفتيه.

كان من الواضح أنه أصبح إنساناً مهماً، لكن ماهو المنصب، الذي شغله بالضبط، هذا مالم أتمكن من فهمه.

عزفت الربابة، وبدأت المغنية وصلتها، بينما جلسنا نحن نستمع، والجراسين يدورون من حولنا، كما تدور الفراشات من حول المصباح المتوهج. يالها من جلسة ممتعه.

وعلى حين غرة سمع ضجيج من خلفنا. وقد تبين أن بعض السكارى ينوون تعكير الجو، لكنهم لم يلحقوا أن يمتشقوا خناجرهم حتى انقض عليهم موسى بصافرته. وللحال تحولت الأسود الكاسرة إلى كلاب وادعة، ذات ذيول متدلية.

أكلنا مايربو ثمنه على المئتي ليرة، لكن صاحب الكازينو رفض أن يأخذ قرشاً وحداً.

ذهبت مع موسى لقضاء الليل عنده. وفي صباح اليوم التالي، وكان يوم الأحد، جهز موسى فطوراً لذيذاً. وبعد

تناول الطعام أردت الانصراف، لكن موسى لم يتركني، وقد عرض علي:

- ابق معي أسبوعاً، لعلك تتعلم شيئاً.

بقيت في ضيافته أسبوعاً، أمضينا أيامه في النزهات وحضور الحفلات المسلية، وكنا نأكل كل مايخطر بالبال، دون أن ندفع شيئاً.

ولم أكن أكف أسأله:

- لعلك أصبحت شخصاً مهماً؟

وفي كل مرة كان يتجاهل سؤالي. وأخيراً لم يعد يتمالك نفسه، وقال:

- لسوف أكشف لك سري، شرط أن لاتخبر أحداً.

- إنني بئر عميقة لاقرارة لها.

- إحلف بالله.

- والله العظيم.

- أعطني كلمة شرف.

- بشرفي.

صدق موسى أيماني، وأخرج الصافرة، فقبلها، ثم وضعها فوق رأسه:

- هذه الصافرة ليست عادية، إنها صافرة سحرية. ففي ذات مرة وقفت في «كاراكيو» أنتظر «السرفيس»، وعبثاً انتظرت أن يأتي دوري. وبالمصادفة كانت هذه الصافرة،

ذات السلسلة في يدي. كنت ألوح بها متسلياً، وفجأة، رفعتها بدون شعور إلى فمي، وصفرت. وفي التو هرع نحوي أحدهم إنه شرطي متنكر على الأرجح، وقف قدامي باستعداد وسأل:

- ماهي أوامركم؟

فقلت له:

- اضبط النظام هنا.

ثم تابعت طريقي.

وفي مكان آخر خطر ببالي أن أعبر الشارع إلى الجهة الأخرى.

لكن السيارات كانت تتدفق في سيل لاينقطع فما العمل؟

أخرجت الصافرة، وما إن نفخت فيها حتى توقف السيل الجارف، فعبرت إلى الطرف الآخر بكل اطمئنان، وأنا أقول في نفسي «إنها تحقق المعجزات» لقد اكتشفت أنه يكفي أن أستخدم الصافرة حتى تتحقق كل رغباتي.

وفيما بعد اكتشفت السر. كل شيء عندنا يعمل ويدور بواسطة الصافرة. فبالصافرة تقلع الباخرة، وبالصافرة ينطلق القطار، والصافرة تحل كل المشاجرات. وكل من يسمع صوت الصافرة يولي الأدبار. يكفي الآن أن أصفر حتى تخلو هذه الساحة من كل من فيها، الجميع سيركن الى الفرار.

وحينذاك أدركت أن الصافرة هي التي تدير كل شيء عندنا.

ومنذ ذلك الحين وأنا أدين بحياتي المرفهة لها. لكن أرجوك أن لاتخبر أحداً بذلك، وإلا ظهر لدي الكثير من المنافسين، وحينذاك قل على الدنيا السلام.

قطعت على نفسي عهداً أن أكتم هذا السر. لكنني لم أعط وعداً بأن لا أكتب عنه. والآن لي عندكم رجاء فليبق سراً هذا الذي سأرويه لكم... فما إن فارقت موسى حتى اشتريت لنفسي صافرة. لكنني لم أكد أصفر فيها وكان ذلك في ساحة «التقسيم»، حتى اعتقلوني. وفي اليوم التالي نشرت كل صحف البلاد خبراً عني تحت عنوان «القبض على مفتش مزيف» و «اعتقال شخص يدعي أنه شرطي»، ويشهد الله أنني لم أكن أنوي السوء. حينذاك فقط أدركت أنه يجب أن يعرف المرء كيف يصفر. فاذا ماقام بذلك بارتباك، ويدين ترتعشان، فإن أحداً لابد سيرتاب في أمره.

والآن رجائي لكم هو: أن لاتخبروا أحداً بطريقة استخدام الصافرة، وإلا فإن ذلك يمكن أن يلحق الضرر بأولئك الذين يتقنون استخدامها.

المرض العضال

إنني أكن كل الكراهية لعمي، فهو غاية في البخل. ولولا المرض الفظيع، الذي أصابه، وهو في العقد السابع من عمره، لما عرف أحد مدى غناه. بينما كنا نعتقد أنه ـ مثله مثل جميع أقاربنا ـ ليس واسع الثروة. لكن ها هو يصاب بالمرض، ومن أجل إنقاذ حياته راح يبدد الأموال الطائلة دون حساب. وحينذاك اكتشفنا أن ثروته «لاتأكلها النيران»، وقد تملكنا، نحن أقرباءه، السخط، الذي له مايبرره، فقد خدعنا هذا المحتال.

كان المرض يعشعش في مكان ما في داخله. لكن أين بالضبط، هذا مالم يعرفه أحد. وعلى سؤال: «أين الوجع؟» كان يشير بيديه الى نقطة بين الجزء الأسفل من البطن وبين العصعص، ولكن الأطباء وقفوا عاجزين أمام تشخيص مرضه.

إنني لا أثق بالطب منذ عهد بعيد. لقد استطاع الفلكيون معرفة العنوان الحقيقي للنجوم، التي تبعد عنا مليارات الكيلومترات، بينما لم يستطع الأطباء، هنا على الأرض، معرفة مرض عمي. إن ذلك يعتبر مبرراً آخر على موقف الشك، الذي أقفه من علم الطب.

ويقول عمي متوجعاً:

- يخيل إلي أن دزينة من القطط والكلاب تجلس في بطني. إذا ما ملأنا كيسا بهذه المخلوقات، وربطناه فانها ستبدأ العراك هناك، فتخرمش وتعض. إن شيئاً من هذا القبيل يدور في بطني.

بالطبع لم يكن ثمة كلاب ولا قطط في بطن عمي. كل ما في الأمر أنه كان في شبابه مغرماً بقراءة الأشعار، ويحب البلاغة. ولو كانت الكلاب والقطط في بطنه لكان الأمر في غاية السهولة. إذن لاستخدمنا تجربة البلدية في القضاء على الكلاب والقطط الشاردة، وأجبرنا عمي على تناول قطعة من اللحم المسموم، لإنقاذ المسكين من هذا العذاب.

ليس عدد الناس، الذين يجدون صعوبة في إيضاح مكان وجعهم بالتحديد، بالقليل. وهنا يأتي دور الأطباء لكي يدلوا بدلائهم فيكون لهم القول الفصل، لكن عمي كان يعرف أين مكمن الداء لديه.

- هنا، في هذا المكان - كان يقول للأطباء، وهو يضع إحدى يديه على عصعصه، والأخرى على بطنه.

لكن الأطباء لم يستطيعوا لوضع التشخيص سبيلاً.

لم يبق في المدينة طبيب لم يتردد عمي عليه. وقد التهم العلاج كدسة من المال.

وفي ذات مرة حدثنا أحد معارفنا أنه سبق له أن أصيب بمرض شبيه بمرض عمي، وذكر اسم الطبيب الذي عالجه فشفاه، فحملنا عمي إلى هذا النطاسي، الذي أعلن حال فحصه له:

- قرحة المعدة.

شعرنا من فرط السعادة أننا في السماء السابعة.

فالقرحة أفضل من الجهل المطبق.

واستناداً إلى معلوماتي التشريحية، التي تعود إلى أيام المدرسة، قلت للطبيب:

- إن بؤرة مرض عمي تقع بين الجزء الأسفل من بطنه وبين العصعص، بينما تؤكد أن لديه قرحة في المعدة. لكن المعدة أعلى من هذا المكان.

وللحال دحض البروفيسور حججي، بقوله:

- إنك على حق، لكن معدة عمك انخفضت بشكل كبير، وهي الآن أدنى من المكان الذي تعتقد بثلاثة سنتيمترات. لابد من عملية عاجلة.

ولما كان عمي مستعداً للقيام بأي شيء، في سبيل التخلص من هذه العذابات التي لاتطاق، فقد وافق فوراً. لكن العملية لم تجد نفعاً، بل أدت إلى تفاقم المرض. لست أدري هل أصدق، أم لا، لكن الممرضة، التي ساهمت في إجراء العملية؛ أشارت إلى أنه لم يتم اكتشاف أية قرحة.

حتى إن البروفيسور وقف ذاهلاً.

- لقد فتحت آلاف المعدات في حياتي، لكنني للمرة الأولى أرى معدة سليمة ومتينة كهذه. إن بوسعها هضم حجر الزلط.

ومع هذا، ورغبة منه في تبرير الأجرة، التي أخذها، فقد اقتطع من معدة عمي نصفها.

وحاول الطبيب المساعد أن يعترض على ذلك:

- مادامت القرحة غير موجودة فما الداعي للاستئصال؟ إنها معدة سليمة تماماً.

وقال البروفيسور، بلهجة المحاضر، الذي يتحدث عن الكشوفات الجديدة في ميدان الطب:

- إن المعدة عضو خطير. صحيح أنه لاوجود للقرحة الآن، لكنها يمكن أن تظهر في أي وقت. وباستئصال نصف المعدة نكون قد قللنا إلى النصف احتمال إصابة المريض بها في المستقبل.

وهكذا فإن العملية كلفت عمي مبلغاً كبيراً من المال، بالإضافة إلى نصف معدته. والأنكى من ذلك كله أن حالته ازدادت سوءاً.

هنا نصحونا بزيارة أحد أطباء الأمراض الداخلية.

- إنه ساحر - قالوا لنا - حتى إنه يبعث الميت من قبره، إذا لم يكن قد مر يوم كامل على الوفاة.

لم يكن هذا التأكيد بعيداً عن الحقيقة. فلم يكد طبيب الداخلية ينتهي من فحص عمي حتى وضع تشخيصه:

- الكليتان. لابد من عملية.

للمرة الثانية سلم العجوز المسكين بطنه لمبضع الجراح.

ولكم أن تتصوروا مدى ذهول طبيب الداخلية، حين وجد أن كليتي عمي سليمتان، خاليتان من المرض، حتى أنه أراد استئصال إحداهما، لأن مثل هاتين الاثنتين الممتازتين رفاهية زائدة جداً لشخص واحد.

واحتج الطبيب المساعد الذي حضر العملية:

- ماالداعي لاستئصال الكلية السليمة؟ فهما، والحمد لله، تعملان بدقة، كأنهما ساعة «غرنيوتيش».

لكن طبيب الداخلية رد على مساعده بقوله:

- إذا لم نستأصل إحدى الكليتين سيقول المريض: «لقد دفعت هذا المبلغ دون جدوى»، وبغية تلافي حدوث فضيحة

سنعرض عليه كليته، ونقول له: «تفضل انظر، هذا هو العضو الذي استأصلناه»، يجب أن يكون بين أيدينا دليل حسي...

ودون تفكير طويل استأصل إحدى كليتي عمي.

وهكذا فقد عمي عضواً آخر. ولم يكفه دفع مبلغ كبير من المال، وكادوا يخرجونه من غرفة العمليات إلى المقبرة، بل وجه من خلال الجريدة بطاقة شكر وامتنان لجميع طاقم المستشفى، بدءاً من الطبيب وانتهاءاً بالبواب.

لكن حالته لم تتحسن، لابفضل بطاقة الشكر، ولا نتيجة العملية، على العكس فقد ازدادت حالته سوءاً.

وقال أحد معارفنا:

- ست عشرة مرة رقدت تحت مبضع الجراح، وقد استأصلوا كل أعضائي الداخلية، وأعادوا تركيبها من جديد، دون جدوى، لكن أحد الأطباء جعلني أقف على قدمي.

وعلى الفور حملنا عمي إلى هذا النطاسي. وما إن انتهى عمي من سرد قصته عن مغامراته الطبية حتى ابتسم الطبيب وأوضح.

- عبثا استأصلوا نصف معدتك وكليتك. فأنت مصاب بانعقاد الأمعاء.

وهنا أدركت جلية الأمر: يبدو أن عمي البخيل قد عاش على الطوى، فتشابكت أمعاؤه بشكل غير قابل للحل.

للمرة الثالثة رقد عمي على طاولة العمليات. ولم يكد الجراح يرى جوفه حتى ارتبك لدرجة أن المبضع سقط من يديه، وهتف قائلاً:

- يالها من أمعاء... لم يسبق أن رأيت في حياتي مثيلاً لها، لافي المتانة ولا في الطول. إنها تكفي لدزينة من البشر.

منذ نعومة أظفاري وأنا أعرب عن استيائي من جور الطبيعة. لنأخذ القامة، على سبيل المثال. بعض الناس ولدوا أقزاماً، وما حجبته عنهم أغدقته على غيرهم. من يعرف على حساب كم من ذوي القربى جاءت أمعاء عمي بهذا الطول.

وعلى الرغم من أن الطبيب أساء التقدير فإنه قرر، مع هذا، أن يقصر أمعاء عمي.

وللأسف أن ذلك لم يجد نفعاً.

وجاءنا بعض المعارف يغدقون المدح والاطراء على أحد الأطباء في أنقرة. حتى إن أحدهم قال لعمي:

- إن لم يستطع هذا ايضاً شفاءك، فهذا يعني أنك غير قابل للشفاء، وما عليك إلا أن تذهب الى البحر، وتلقي بنفسك فيه.

أصغى طبيب أنقرة إلى شكاوى عمي، ثم ابتسم، ووضع تشخيصه مباشرة.

- التهاب المصران الأعور.

من جديد شقوا بطن عمي، لكنهم لم يعثروا للالتهاب على أثر. فقد كان المصران الأعور سليما معافى، بريئاً براءة قلب الفتاة العذراء. ولكن مادام بطن عمي قد شق، فقد تقرر استئصال مصرانه الأعور تمشياً مع أخلاقيات الطب.

يبدو أن هذا المصران كان يحفظ البقية الباقية من قوى عمي وصحته، إذ تدهورت صحته بعد العملية بشكل مخيف.

بعد ذلك لم يكن عمي يسمع بطبيب لامع حتى يقصده، لكن حالته كانت تزداد سوءاً في أعقاب كل دورة علاج، وبعد كل تدخل جراحي. لقد مر على مبضع العديد من الجراحين، وحتى الآن مازلت في دهشة من أمره وأمر ثروته، فكيف استطاع ادخار هذه الأموال الطائلة؟ فلو لو لم يتنفس الهواء، بل المال، ولو لم يأكل الخبز، بل النقود، إذن لما استطاع برأيي، حتى نهاية حياته، جمع رأسمال كهذا.

كان جسم عمي قد شق بالطول والعرض، وتحولت كل أعضاء جسمه الزوجية الى فردية، وتم تقصير كل مايمكن تقصيره، بل وأزيل نهائياً. قبل مرضه كان عمي يزن ستين كيلو غراماً. وكلما ازداد استئصال الأعضاء الزائدة من جسمه كان مؤشر وزنه يتدنى إلى أن استقر أخيراً على الرقم ثلاثين.

وفي الوقت نفسه تدهورت روحه المعنوية، وفقد كل ثقة بالشفاء. إلى أن جاء أحد المعارف، وزكى له طبيباً آخر.

صدق من قال: مادام الانسان حيا يظل الأمل يراوده، وهكذا فقد انطلق عمي إلى هذا الطبيب يحدوه الأمل بالشفاء على يديه.

أصغى الطبيب إلى ملحمة عمي التراجيدية حتى النهاية، ثم قهقه وقال:

ـ إنني أرثي لكل ماجرى لأعضائك الداخلية. لكن اللوزتين هما سبب مرضك.

ولم أتمالك نفسي:

ـ اعذرني، صحيح أنني جاهل في شؤون الطب، لكن علي أن أشير إلى أن مصدر مرض عمي يتوضع بين أسفل البطن والعصعص. فما دخل اللوزتين هنا؟

فقال الطبيب، وهو يهز كتفيه:

ـ هذا مالا أعرفه أنا نفسي. لكن اللوزتين لاتصلحان لشيء. وهما زائدتان، كما يقال. وإذا ما استؤصلتا فإنه لاضرر من ذلك أبداً، أضف إلى ذلك أنه لم يبق في جسم قريبك شيء آخر قابل للاستئصال . ومن يدري فقد تكون اللوزتان سبب المرض، فدعونا نستأصلهما، وإذا تبين أن هذه العملية غير ناجعة فكرنا بشيء آخر.

استؤصلت اللوزتان، لكن حتى هذا لم يخفف من أوجاع عمي. وأصبح جسمه، المزدان بالندوب ومخلفات العمليات، شبيها بشبكة الصيد المرقعة. والآن لم يعد بمقدور عمي

الأنين والتأوه من الوجع كما في الماضي، إذ كانت جروح العمليات تتفتق بسبب التنهدات العميقة، فكان يتمتم باستمرار:

ـ آه ياربي، وأنت القادر على كل شيء، لماذا لم تخلق جسم الانسان مجهزاً بـ «السحاب»؟ إذن لكان بوسع الأطباء أن يصلوا إلى أعضائه الداخلية بكل سهولة.

وأعلن أحد الأطباء،وصف بأنه نطاسي حاذق، أعلن، إذ رأى أنه لم يبق في جسم عمي المسكين سنتيمتر واحد، لم يتناوله مبضع الجراح:

ـ هناك خلل في عمل الغدد ذات الإفراز الداخلي، ولابد من علاجها. إن لديك فيضاً من النشاط الهرموني. ـــ ثم طالب، وأستميحكم عذراً، أن يوافق عمي على استئصال إحدى الخصيتين.

وأعترف أنني صعقت لذلك، إذ كيف يمكن الحديث عن فيض في النشاط الهرموني بعد استئصال كل هذا الكم من الأعضاء الداخلية؟

وأوضح لي طبيب الغدد، ذات الإفراز الداخلي:

ـ إن ذلك يعود إلى توقف العديد من الأعضاء عن وظائفها في جسم العجوز. ومن البدهي أن يكون نشاط الغدد، ذات الافراز الداخلي زائداً بالنسبة لجسم كهذا.

وقال عمي متوسلاً:

ـ إذا كـان الأمـر كذلـك فاسـتأصل الخصـيتيـن كلتيهمــا، المهم أن أسترد عافيتي.

لكن الطبيب اعترض على ذلك بقولـه إن رغبـة عمـي تتعارض مع أخلاقيات الطـب ومـع المبـادىء الانسـانية، ولـم يخصه إلا بمقدار النصف.

لكن هذه العملية بدورها لم تأت بنتائج إيجابية:

وحين دفع اليأس بعمي إلى حافة الرغبة فـي الانتحـار، زودنـا أحـد معارفنـا، وكـان قـد سبق أن أصيـب بمثـل هـذا المـرض الغـامض، بعنـوان الطبيـب، الـذي كـان شـفاؤه علـى يديه.

لـم يكـد الطبيـب الجديـد يسـمع قصـة مغـامرات عمـي الطبية حتى ابتسم، وقال:

ـ خسارة، خسارة! إن بالامكان صنع شخص آخر مـن الأعضـاء التي استؤصلت من جسمك.

وبعد أن فحص قدمي عمي قال:

ـ إن مسـامير الأقـدام هـي سـبب مرضـك. لســوف أستأصلها.

يجب أن أشير إلى أنه لم يبق لدى عمي مايستأصل إلا مسامير الأقدام هذه.

وصحت، أملاً في إنقاذ حتى هذه المسامير من التدمير.

ـ رحماك يادكتور، لكن ماهي علاقة المسامير بالمنطقة الواقعة بين أسفل البطن والعصعص؟!

فأوضح الطبيب:

ـ إن الجسم كل متكامل. فإذا ماكان لديك دمل في إصبعك، فإن الألم لايقتصر على الإصبع فقط، بل إن كل جسمك يتألم.

استؤصلت مسامير القدمين ـ لاشك أن ذلك عاد بالفائدة على الطبيب، لكن العملية لم تعد على عمي بأي نفع.

وطلب عمي من وزارة الصحة أن تزوده بقائمة بجميع الأطباء في تركيا، حيث تبين أنه زارهم جميعاً باستثناء اثنين فقط. وهكذا فقد قصد عمي أحدهما.

وقد أعرب هذا عن دهشته من أن عمي لايزال حيا يرزق:

ـ لم يعد بالامكان اعتبارك إنساناً. شيء مدهش أن الطب وصل هذه الذرى من التقدم، مادام قد استطاع إبقاءك على قيد الحياة.

ـ لكن ماهو نوع مرضي؟ سأل عمي.

توضحت معالم صورة المرض للطبيب بعد أن انتهى من فحص عمي. وبناء على أوامره تمت حلاقة كل ماعلى جسم عمي ورأسه من شعر، حتى شعر حاجبيه لم ينج من

هذه المجزرة.. ومن ثم دعا الطبيب إلى كونسلتو طبي، بهدف عرض هذا النموذج الفريد على زملائه.

بعد ذلك لجأ العجوز المسكين إلى الطبيب الأخير في القائمة. وقد اكتشف هذا أن سبب المرض يكمن في التهاب اللثة. ولما كان عمي يريد التخلص من المرض مهما كان الثمن، فقد وافق على خلع كل مافي فمه من أسنان، ولم يكد يتم له ذلك حتى صاح:

- أمسكوني، أمسكوني، لقد أصبحت خفيفاً كالريشة، وأكاد أطير.

والغريب أن مخاوفه كانت في مكانها. ففي أحد الأيام، هبت نسمة قوية، دفعت بعمي عالياً، فحلق كما البالون، ثم حط على سطح المنزل.

ظل العجوز على قيد الحياة، لكنه لم يعد شخصاً عادياً، بل مجرد شبح.

وقال لي ذات يوم:

- أريد أن أنفق ماتبقى لدي من نقود على العلاج لدى الأطباء الأوربيين.

سافرنا أنا وعمي إلى باريس. ولما لم نكن نعرف أحداً هناك فقد دخلنا أول باب صادفناه، وقد علقت فوقه لوحة صغيرة تشير إلى أن هذه عيادة طبيب.

أصغى الدكتور الفرنسي لقصة عمي، وبعد أن فحصه أطلق فجأة قهقهة عالية، ولفترة طويلة لم يستطع تمالك نفسه. وأخيراً قال لعمي، وهو يأخذه بين يديه:

- إفتح فمك.

وأطاع عمي. فمد الدكتور الملقط داخل حنجرته، ثم أخرجه في الحال، وسأل:

- كيف تشعر الآن؟

فيرد عمي:

- ممتاز. لم يعد للألم أي أثر.

- تفضل وتأمل سبب مرضك ـ قال الطبيب، وهو يعرض علينا الملقط وفيه شعرة بيضاء صغيرة ـ كن حذراً وأنت تقوم بتنظيف أسنانك. فقد علقت شعرة من فرشاة الأسنان في حنجرتك.

عدنا إلى اسطمبول، ولم يبق لمرض عمي من أثر، وكذلك من ثروته. وعلى الرغم من شفائه فإنه لم يعمر طويلاً، حيث فارق الحياة بعد نصف سنة، إما بسبب ماحل به من فقر، وإما بسبب العمليات، التي لاحصر لها ـ لست أدري.

نحن، معشر البشر

سواء حدث ذلك منذ عهد بعيد، أو غير بعيد، في مكان ناء أو قريب، في موقع عال، أو منخفض، قبل أن أفتح عيني على نور الدنيا، أو بعد أن واروا جثماني الثرى ـ صدق، أو لاتصدق ـ فقد كان ثمة على هذه الأرض مدينة، وكان في تلك المدينة بيت.

هيه أيها القراء، أيها المستمعون! مهما كان العصر الذي عشتم فيه ـ منذ عشرة قرون خلت، أو بعد عشرة قرون قادمة، ومهما كان البلد الذي فيه تقطنون ـ بلداً رائعاً، أم على العكس ـ ففي ذلك العصر اياه، وفي ذلك البلد نفسه كانت تقوم تلك المدينة إياها. وباللغة، التي تتحدثون، كان يتحدث سكان تلك المدينة.

فلنبدأ قصتنا.

إذن كان في تلك المدينة بيت، وفي هذا البيت يعيش شخص. وفي ذات مرة استيقظ صاحبنا من نومه، وراح يتثاءب بتلذذ، وهو بعد في فراشه ـ وفجأة رأى، ويالهول مارأى، رأى على الوسادة المجاورة لوسادته رأس غولة هائل، له عينا جاموس، وأذنا حمار وأنف شبيه بفنطيسة الخنزير ومن تحت اللحاف تبرز مخالب ضخمة، أكبر بمئة مرة من مخالب النسر، ويبصبص ذيل شبيه بذيل الكلاب. لكن صاحبنا يذكر جيداً أنه البارحة أوى الى الفراش مع زوجته، وليس البارحة فقط، فمنذ ثلاثين عاماً وهي تشاطره فراشه.

ولم يكد يرى هذه الغولة في أحضانه حتى سحب يديه، وتراجع نحو الجدار، ثم صرخ بأعلى صوته. وللحال استيقظت الغولة من نومها وسألته:

ـ ماذا جرى لك يابن عمي؟

والغريب أن صوت الغولة كان آدمياً، والأكثر غرابة أنه وصوت زوجته صنوان، لكنه ألطف وأعذب من المألوف.

وثب صاحبنا من الفراش بثيابه الداخلية، ثم انزوى في ركن الغرفة، وللحال نهضت الغولة، وهي بثيابها الداخلية أيضاً. ياإلهي كم هي مخيفة، فالنهدان يتدليان ككيسين فارغين، والشعر طويل كما لدى الساحرات الشريرات، وخشن كما شعر الدواب. خطت الغولة باتجاهه، وهي تسأل:

ـ ماذا جرى لك يابن عمي؟ ماذا حدث؟

ياللصوت الحنون واللطيف، الذي يصدر عن هذا الكائن الفظيع.

غطى صاحبنا وجهه بيديه لكي لايقع نظره على الغولة، وعاد يزعق بصوت تقشعر له الأبدان.

هنا انفتح الباب، ودخلت الغرفة ثلاثة مخلوقات غريبة. الأرجل آدمية، والجذوع أفعوانية، ذات حراشف لامعة، والآذان حادة، أما الشعر فيشبه المكنسة، وكان طويلاً لدى أحد الثلاثة، بحيث يغطي كتفيه.

جحظت عينا صاحبنا في محجريهما، وزعق:

ـ انقلعوا من هنا.

وجرى المخلوق ذو الشعر الطويل نحوه:

ـ أبي! بابا!

وهنا صاح ثلاثتهم بصوت واحد:

ـ ماذا بك يابابا؟

تسمر صاحبنا في مكانه، فهذه المخلوقات الغريبة، التي هي خليط من ابن آدم والأفعى والحمار، تتحدث بأصوات أولاده.

واندفع صاحبنا ناحية الباب، وهو يصرخ:

ـ ما ـ ما!

كانت أمه امرأة عجوزاً في حوالي الثمانين من العمر.

ـ مـاذا جـرى يـابني؟ ـ تتـاهى صوتهـا مـن الغرفـة المجاورة.

ما إن فتح صاحبنا الباب حتى كاد يقع مغشياً عليه.

فقد رأى أمامه بقرة ذات رأس آدمي.

وسألت، وقد فتحت شدقيها، بصوت لايختلف في شـيء عن صوت أمه:

ـ ماذا جرى لك يابني؟

راح صاحبنا يرتدي ثيابه على عجل، ومن حوله كـانت تقف المخلوقات الخمسة الغريبة وهي تسأل بإلحاح:

ـ ماذا بك ياعزيزي؟

ـ لماذا تنظر إلينا نظرة الخوف هذه؟ ـ سأل المخلـوق بعيني الجاموس وأذني الحمار.

ـ لماذا ترتجف ؟ ـ سأل أحد المخلوقات الغريبـة، ذو الشعر الشبيه بالمكنسة.

ـ انقلعوا من هنا كلكم! زعق صاحبنا، وانطلق خارجاً.

لكنه كان «كالمستجير من الرمضاء بالنار»، فأي شـيء هذا؟ فالشارع يغص بالمخلوقات الغريبة ـ العجيبة. إنهم ليسوا بشراً، وليسوا وحوشاً. فالفيل برأس وحيد القرن، والجـاموس ببوز الضبع وذيل الأفعى. والجمل ببوز السعدان، والضفـادع بحجم البقـرة ورؤوسـها آدميـة. لـو أنـك أطلقت سـراح كـل

الوحوش من حديقة الحيوان لما كان المنظر أشد هولا. لكن مايراه ليس وحوشاً.

انطلق صاحبنا يعدو، وهو يمسك برأسه.

لكن المخلوقات الفظيعة كانت تصادفه أنى ذهب.

راح يجري دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، إلى أن وجد نفسه أمام باب المؤسسة حيث يعمل. ولم يكد يرتقي درجات السلم حتى اقتنع أن هذا المكان بدوره يغص بالمخلوقات المرعبة. اقتحم صاحبنا غرفة مكتبه، وأخذ مكانه خلف الطاولة. بعد ذلك ضغط الجرس، مستدعياً الحاجب. فظهر ديك رومي، بقدمين آدميتين، ورأس كلب.

- نعم ياأفندي.

- إنني أكاد أجن... أجن... - صرخ صاحبنا.

- لماذا؟ هل حدث لك مكروه؟ - سأل الديك الرومي بصوت الحاجب المألوف.

أغمض صاحبنا عينيه، وأوعز له:

- ناد السيدة ف.

- حاضر.

كانت السيدة ف. تعمل ضاربة آلة كاتبة في دائرته. وهي فتاة جميلة جداً. وكان صاحبنا غارقاً في حبها حتى أذنيه. ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى انشق الباب، ودخلت فقمة، بأطراف كلب، وهي تلمع بجسمها المبلل.

- من أنت؟ زعق صاحبنا.

- هل طلبتني؟ - ردت القمقمة.

شعر صاحبنا أنه لن يلبث أن يصاب بالجنون، فانطلق نحو مكتب المدير العام. وهناك، خلف الطاولة كان يتربع عفريت فظيع.

- يبدو أنني نائم. نائم، وأنا في حلم - تمتم صاحبنا، ثم ولى الأدبار.

وفي الشارع وجد نفسه من جديد وسط المخلوقات الغريبة: الجعلان العملاقة، الجنادب الضخمة ضخامة الفيلة، والعقارب بحجم رأس الانسان، والتماسيح تتمايل على أرجل الأوز.

- النجدة، النجدة! - راح صاحبنا يصرخ، وهو يضرب في شوارع المدينة على غير هدى.

تقاطرت المخلوقات على صراخه من كل حدب وصوب. إنها تروم اللحاق به، لكنها لاتستطيع لذلك سبيلا. بالكاد استطاع النجاة بجلده من الضبع. ووضع الخنزير البري رجله في طريقه، فسقط على الأرض، لكنه نهض فوراً، وانطلق يعدو من جديد، وهو لايكف يطلق نداءات الاستغاثة بصوت عال:

- النجدة! ساعدوني!

استمرت المطاردة عدة ساعات، وأخيراً تمكنت المخلوقات من اللحاق بصاحبنا بعد أن نال منه التعب والارهاق، ووجد نفسه في طريق مسدود.

- وي. وي. وي - لقد جن المسكين. - تناهت إليه أصوات المخلوقات، تحيط به من كل جانب.

قيدت يدا صاحبنا وقدماه بقوة، لكن يبدو أن ذلك لم يكف، فوضعت الأصفاد في يديه، والأغلال في قدميه، ثم ألقوه في عربة، أقلته الى مبنى كتب عليه «مشفى المجاذيب»، ثم أدخلوه مكتباً يحمل لوحة «رئيس الأطباء».

- النجدة - استغاث صاحبنا - هل يعقل أنه لايوجد إنسان واحد؟ ساعدوني!

دخل الغرفة سرطان غريب، بأرجل جمل، وفي رداء أبيض.

- فكوا وثاقه - أمر السرطان.

ما إن شعر صاحبنا بسقوط الأصفاد والأغلال حتى أدار ظهره للمخلوقات الفظيعة، التي غصت بها الغرفة، ثم جلس، وأطرق براسه.

وسال السرطان، في الرداء الأبيض، بلطف:

- ماذا بك؟

- لاشيء - رد صاحبنا، دون أن يرفع رأسه.

- لماذا أدرت ظهرك؟

حدثه صاحبنا بكل ماجرى له في هذا اليوم، ثم عاد إلى تأوهاته:

ـ أين البشر؟ أين اختفوا؟

وترددت في أذنيه ضحكة مكبوتة.

ـ كل شيء واضح. لسوف أشفيك بسرعة. ـ قال السرطان، ثم التفت إلى السلحفاة العملاقة:

ـ هلا جلبت له المرآة ياعزيزتي! دعيه يرى نفسه فيها.

ولم يلبث المخلوقان الهائلان ـ وهما خليط من الخنزير والضبع ـ أن أحضرا مرآة ضخمة.

وفي المرآة وقعت عينا صاحبنا على كائن أشد هولاً وأكثر قبحاً من كل ماوقعتا عليه منذ الصباح الباكر. الوجه آدمي، لكنه ملطخ بالدم والقيح. ومن فمه يبرز نابان هائلان. الأذنان أذنا حمار، والعينان جاحظتان، ضخمتان، كأنهما صحنان، وفي قمة رأسه قرنان متفرعان، أما الجذع فحرشفي، أخضر غامق، كما جسم السحلية.

وصرخ صاحبنا من هول مارأى، ثم وقع مغشياً عليه. ولم يلبث أن استعاد وعيه بعد وقت قصير، ثم سأل بصوت وأده التعب:

ـ أين أنا؟...

ورد الطبيب في الرداء الأبيض:

ـ إنك في المستشفى. كيف تشعر الآن، هل تحسنت؟

وابتسم صاحبنا:

شكراً يادكتور، إنني في حالة ممتازة.

وقال الطبيب:

- إذا ماجرى لك في المستقبل أي شيء مـن هذا القبيل فيكفي أن تنظر الى نفسك..

إلى جانب الطبيب كانت تقف فتاتـان جميلتـان - إنهمـا مساعدتاه. خرج صاحبنا من المستشفى بعد أن شـكر الجميـع. وفي الشوارع كان الناس العاديون يروحون ويجيئون كما هي العادة. وظل حتى المساء يعمل في مؤسسته، ومن ثم عاد إلى البيت.

- كيف أصبحت؟... سأل زوجته.

- صباح الخير - ردت زوجته - مالك نمت اليوم طويـلاً ... القهوة جاهزة. ونحن بانتظارك.

نهض صاحبنـا من فراشـه، وغسل وجهـه، ثـم قبـل أولاده.

ومن الغرفة المجاورة تناهى صوت أمه:

- كيف أصبحت يابني؟

ورد صاحبني؟

- بـأفضل حـال ياأمـاه. وكيـف أصبحـت أنـت؟ هل كـل شيء على مايرام؟.

ضربة معلم

يخفي بعض أصحاب الصحف عدد النسخ الذي تصدر به صحفهم، وعدد مايباع منها في إطار سر المهنة، أما أنا فلست من هذا النوع، إذ أقول كل شيء، وحتى إن لم أقل، فإن ذلك يصبح معروفاً للقاصي والداني.

كل شيء يبقى هادئاً مادمت لا أصدر الصحف، لكن يكفي أن أبدأ بإصدار واحدة منها حتى يتقاطر علي الزوار ويتقاطرون، ألا ليوفقهم الله.

حين أتمكن من بيع عشرة آلاف نسخة يأتيني زائر واحد، أما حينما يأتيني اثنان، فهذا يعني أن البيع ارتفع إلى عشرين ألفاً.

ولما كنت أحب الأصدقاء حباً جماً، فإنني على استعداد من أجل رؤيتهم، لأن أرفع عدد نسخ صحيفتي. في الآونة الأخيرة يأتيني كل يوم حوالي عشرين شخصاً. شيء يسر القلب.

شيء واحد يقض مضجعي: ثمة أشخاص من هواة «طق الحنك»، وهؤلاء لايتركون لي الوقت لا للقراءة ولا للكتابة، ولا حتى للتنفس بحرية. وفي نهاية المطاف عثرت على الدواء الناجع، فقد علقت لوحة خلف ظهري كتب عليها:

«لينقلع الثرثارون».

من يمكن أن يضايقني إذا مارأى هذه اللوحة، المكتوبة بأحرف بارزة؟

ويدخل الزائر الأول، واضح أنه غر. وبعد أن قدم نفسه راح «يكر ويكر». وفحوى كلامه أن كلمة «الصحفي» فقدت معناها الأصلي، وهي الآن تعني ذلك الشخص الذي يدافع عن حقوق الناس، ويسهر على حماية مصالحهم...

وهنا وقع نظره على اللوحة، فقال، وهو يقهقه:

- إنها «ضربة معلم» ياعزيزي. إنها تقيك شر جميع أولئك الهذارين، هواة الكلام الفارغ.

- ليس في اليد حيلة، قد تكون العبارة فظة، لكنهم لايتركون لك مجالاً للعمل...

وقاطعني بقوله: ـ إنك محق تماماً، حيث يأتيك من هب ودب، ولا يكف يثرثر لساعات، حتى ليكاد رأس المرء ينفجر . إن ماقمت به هو عين الصواب، علّ هؤلاء الخطباء يرتدعون، فأنا بدوري ذقت منهم الأمرين، ولم أهتد إلى طريقة للتخلص منهم، والآن سوف أحذو حذوك، وأعلق شيئاً مامن هذا القبيل فوق مكتبي.

أمضى حوالي الساعة وهو يشرح لي فوائد مثل هذه اللوحات، ويصب جام شتائمه على الثرثارين. بعد ذلك انتقل إلى سبب زيارته، وأخيراً انصرف على أن يعود لزيارتي في أقرب وقت.

ولم يكد يخرج حتى دخل مكتبي واحد من أصحابي، الذي ما إن رأى اللوحة حتى صاح، وهو لايزال على العتبة:

ـ لمن علقت هذا، لعلك تقصدنا نحن؟ طيب ها أنا ذاهب، لكنني لن أطأ عتبة مكتبك بعد اليوم.

قال ذلك، ثم استقر في جلسته قبالتي، بينما رحت أدافع عن نفسي:

ـ ماهذا الكلام ياعزيزي! ماالذي جعلك تعتقد أنك أنت المقصود؟ أبداً أقسم لك.

بعد ذلك جاء دوره، وعلى مدى ساعة راح يشرح لي أن مثل هذه اللوحات دليل على قلة التهذيب، لابل وتجر العار

على صاحبها، وأن الأصدقاء إنما يـأتون إلـي حبّاً بـي، حتـى أنهم يضحون من أجل ذلك بأشغالهم وأمورهم الهامة.

ولدى انصرافه أصر، وهـو يودعنـي، علـى إزالـة هذه اللوحة فوراً.

ويقتحم علي مكتبـي زائـر آخـر، حتـى إنني لا أعـرف اسمه، وكل مافي الأمر أنني أهز له برأسي محيياً حين ألتقـي به.

- إنك لاتقصـد أصحـابك بـالطبع - يقـول، وهـو يبتسـم، مشيراً إلى اللوحة.

- طبعاً، طبعاً....

وتزداد الابتسامة اتساعاً، ويقهقه الزائر:

- لو أنني كنت المقصود إذن لأخذ على خاطري والله.

- أن أقصدك أنت، معاذ الله.

- نحن لسنا مجرد صديقين - صاحبين، بـل نكـاد نكـون قريبين.

وهنا يقتحم علينا خلوتنا أحدهم، ويتدخل في حديثنا مـن على العتبة:

- إنهم يرون أن المرء غـارق فـي العمـل حتـى أذنيـه، وليس لديه الوقت لالتقـاط أنفاسـه، ومـع هذا فـإنهم يحشـرون أنفهم، ويجبرونه على الثرثرة الفارغة. ياللقلة الذوق.

- فعلا.

ـ ياللفظاعة.

ـ بالضبط.

ـ لاتستطيع أن تكنسهم.

ـ كلام من ذهب.

ـ اللوحات غير لازمة بالنسبة للأصحاب طبعاً. خذني أنا على سبيل المثال، حيث يمكن أن تقول لي صراحة: «اذهب، فأنا مشغول» وللتو تراني قد انصرفت. أليس ذلك صحيحاً؟

ـ الواقع أنني لا أعرف، إنني حقا...

ـ إسمع ماهذه القهوة التي جاءونا بها؟ دعهم يغلونها جيداً.

أتى زائري على فنجان القهوة الثاني، ولايزال الحديث يدور حول اللوحة. أخيراً ينصرف كلا الزائرين، فيأتي في أعقابهما آخر. ويجلس هذا مديراً ظهره إلى لوحتي، ويبدأ هذره، دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه.

آه لو أمسك به من كتفيه، وأدور وجهه باتجاه اللوحة. وألجأ الى الحيلة.

ـ هناك تيار هواء، فتعال إلى هنا.

ويلتفت، لكن ليس في الاتجاه المطلوب.

ـ لن تشعر بالراحة على الكرسي، فاجلس في الكنبة.

ـ شكراً لك، فأنا مرتاح هنا.

ـ قسماً بالله لايمكن، تعال إلى هنا.

لكن الحقير لايجلس ووجهه ناحية اللوحة، بل مديراً لها ظهره، كما كان.

وهنا ألقي بورقتي الأخيرة:

ـ مارأيك، ماهو الأصح أن نقول الثرثار أم الهذار؟

ـ وما المناسبة؟

ـ الواقع أنني علقت هذه اللوحة.

والتفت ناحيتها أخيراً، وبعد أن قرأ محتواها، شرع، بكل هدوء، وبلهجة عملية، يشرح لي قواعد اللغة التركية.

ويورد أمثلة لاحصر لها على استعمال كلمة «ثرثر» ومشتقاتها.

ولم ينصرف إلا بعد أن شعر هو نفسه بالإرهاق لكثرة ماتحدث. أخيراً أصبح بوسعي أن أتنفس ملء رئتي، وأكتب مقالتي.

لكن فجأة يدخل الغرفة واحد من أولئك الذين خرجوا للتو يجر خلفه ثلاثة.

ـ لَهْ لَهْ لَهْ.

ـ ماذا فعلت ياحسن؟

ـ ومن أين تأتي هذه الأفكار إلى رأسك؟

ولم ينصرفوا إلا بعد أن أثاروا الكثير من الضجيج والصخب.

وبعد وقت قصير جاء واحد من الزوار السابقين برفقة اثنين جديدين.

- انظروا إليه، وإلى ابتكاراته.

- ها ها ها.

لم يكد الباب يصطفق من خلفهم حتى انقضضت على اللوحة، فانتزعتها عن الجدار، ومزقتها، ثم رميت بها في سلة المهملات.

باب السيارة

لم يكد السائق يصيح معلناً عن وجهته ـ «كورطولوش» حتى تشبثت بالباب، ورحت أشده وأشده، لكن دون جدوى، فالقبضة لاتدور مهما حاولت. ومن الداخل جاءني صوت السائق:

ـ شدها إلى اليسار.

حاولت شدها إلى اليسار، لكن عبثاً.

ومن جديد تردد صياح السائق:

ـ إلى اليسار ياأفندي، إلى اليسار! أم أنه لم يسبق لك أن خدمت العسكرية؟

هلى يعقل أنني نسيت اليمين من اليسار؟ ـ هذا ماخطر لي، ومن خلف الدلموش ـ السرفيس ـ تكدست أكوام الشاحنات والحافلات والتاكسيات، وترددت صافرة شرطي المرور، تصم الآذان.

ـ هلا حركتها ناحية اليسار!

ـ إنها لاتتحرك ياأخ.

ويمد السائق يده، فيفتح الباب، لأجد نفسي داخل السيارة، التي انطلقت على وقع خطبة السائق الساخطة.

إذن لايزال ثمة في العالم أناس لايعرفون اليمين من اليسار، وعليك أن تشرح لكل راكب الشيء نفسه أبداً. الأمر في غاية البساطة، حركها إلى اليسار وتفضل...

لا أريد التفاخر، لكن طبعي في منتهى الهدوء، وإذا كنت مخطئاً فبوسعك أن تشتمني كما يحلو لك، دون أن أنبس ببنت شفة.

واستمر السائق في خطبته دون توقف:

ـ إنني لا أفهم لماذا يعيش الناس، الذين لايجيدون حتى فتح الباب؟..

كنت أشعر وكأنني أحترق من شدة الخجل، فهو على صواب فعلاً، وراح جميع الركاب يوافقونه الرأي.

فقد انبرى أحدهم، وهو شخص بدين، يقول:

ـ كل هذا بسبب انعدام الدقة، فالناس لدينا غير دقيقين ابداً.

ـ والله لم أعد أستطيع التحمل. يبدو أنه يجب تنظيم دورات خاصة للتدرب على فتح الأبواب...

ـ كلا ياأخ، كـلا، فمـن العبـث أن تـدرس إنجـازات الحضارة. فالإنسان العبيط بالفطرة، لايجدي معه التعليم نفعاً.

في ساحة «إمينيونو» قرر البدين النزول من السيارة ، لكن الباب لايفتح. وعاد السائق إلى صراخه، لكن على البدين هذه المرة:

ـ إلى اليمين ياأفندي، حرك القبضة إلى اليمين.

ـ إنها لاتدور ياأخ.

ـ لكنك تحركها إلى اليسار ياأفندي... تباً لهذه... من الخارج تدار إلى اليسار، أما من الداخل فإلى اليمين...

ـ لكنها ـ الملعونة ـ لاتدور في أي اتجاه! لا إلى اليسـار ولا إلى اليمين.

ومن جديد ينحني السائق، ويدير قبضة الباب، فيخـرج البدين بصعوبة بالغة. والآن لم يعد السائق الهائج يغلق فمـه، وأصبح من الانتقال إلى كيل الشتائم قاب قوسين.

ولم يعـد بمقدوري تحمل كل هذا فتخليت عن فكرة الوصول إلى «كورطولوش»، لكنني لم أجرؤ على طلب النزول خوفاً من أن أجد نفسي عاجزاً عن فتح الباب.

ـ جهلة... حمقى...

ـ سأنزل هنا ياأفندي...

أمسكت بالقبضة وأدرتها يمينا. أوخ، حمـداً لك يارب، فقد نجوت، ووجدت نفسي حراً طليقاً، إذن لـم يذهـب جهـدي

عبثاً في مراقبة السائق، وهو يفتح الباب. وقفت أنتظر سيارة أخرى.

- «كورطولوش»؟

- نعم...

توقفت السيارة قدامي. وعلى جناح السرعة حاولت تحريك قبضة الباب إلى اليسار، لكنها لم تتحرك قيد أنملة.

وضاعفت الجهد، ثم عدت أضغط بقوة أكبر، حتى شعرت أن الخدر بدأ يدب إلى يدي.

- إسحبها إلى فوق، إلى فوق - جاءني صوت السائق.

وبالفعل فما إن سحبتها إلى فوق حتى انفتح الباب على مصراعيه. وبدأ السائق يصب جام غضبه:

- كل سكان اسطمبول من نمرة واحدة.

وينبري واحد من الركاب فيؤيده:

- لافائدة ترجى منهم.

- من لايجد فتح باب السيارة فلا داعي لبقائه على قيد الحياة، وأي إنسان هو....

جرب أن تتحمل مثل هذا التهكم! السائق والركاب أجمعوا على اعتباري مذنباً.

في «كاراكيو» أراد أحدهم النزول، لكن الباب ابى أن يفتح.

- إرفعها الى فوق - زعق السائق.

- إنها لاترفع.

- إضغط.

- إنني أضغط، ومع ذلك فهي لاترفع.

ويفتح السائق الباب فيخرج الراكب، وللحال أقفز في أعقابه، خشية أن لا أتمكن من فتح الباب فيما بعد. إذن لقد نزلت في «كاراكيو». وبعد لأي عثرت على «تاكسي». أحرك القبضة إلى اليسار فلا تطاوعني، أحركها إلى اليمين فلا تستجيب، وإلى الأعلى، لكن عبثاً، فإلى الأسفل، لكن دون جدوى! كل جهودي ذهبت سدى... لكنني ضمنت «البهدلة» .

واستمرت جهودي لتحريك القبضة في الاتجاهات الأربعة، لكنها ظلت عصية.

- إدفعها، إدفعها.

- في أي اتجاه؟

- في الاتجاه اللازم. أم أنك لاتجيد الدفع؟... إدفعها إلى الداخل.

لم يسبق لي أن رأيت في حياتي باب سيارة يفتح بدفعه إلى الداخل...

- لاتدفع الباب، بل قبضة الباب.

أخيراً فرجت والحمد لله، فقد فتح الباب.

لكن ماذا عن السائق؟ هلى تعتقدون أنه توقف؟

- يجب أن تعلم كل راكب...

- ليسوا بشراً، بل حمقى - وافقه الرأي الراكب، الجالس على الطرف.

- الباب مفتوح - قاطعه السائق بحدة.

يفتح الراكب الباب، ثم يحاول إغلاقه، لكنه لاينجح، ويحاول من جديد، فتبوء محاولته بالفشل.

- إسحب بقوة.

طاخ ، طاق.

وينقض عليه السائق:

- ليس بهذه القوة، وإلا أخذت منك ربع ليرة غرامة.

وينحني السائق، فيغلق الباب، لكنه لايغلق فمه:

- كل أسبوع تصليح للباب، بل عقوبة... أليس عندكم أبواب في بيوتكم؟ فهذا الباب يعمل كما الساعة، إسحبه بلطف فينغلق...

وهم أحد الركاب بالنزول في «غلاتاساري».

لكن جرب أن تفتح الباب. ومن جديد يتكرر الصخب، ويسود الهرج والمرج، وتضرب الشتائم أطنابها، ومن جديد تتردد الإيعازات: إلى اليمين، إلى اليسار، فوق، تحت.... أخيراً فتح الباب. ومن جديد وجدتني أقفز في أثر الراكب، الذي نجا بجلده.

- «كارطولوش»؟

- نعم، تفضل.

من السهل أن تقول «تفضل»، لكن جرب واركب. أمسكت بقبضة الباب، وبدأ الصراع. إلى الأعلى ـ لاترتفع، إلى الأسفل ـ لاتتحرك، إلى اليمين واليسار لاتدور، بالدفع لاتنضغط... ألا ليأخذك الشيطان. وبذلت قصارى جهدي، لكن حتى لو خرج المارد الجبار من قمقمه لما استطاع فتح هذا الباب.

ـ إجذبها صوبك.

ـ هذا هو السر إذن. وبالطبع فقد بدأ السائق سرد مواعظه... أوه كلا، لقد بلغ السيل الزبى...

ـ إسمع ياأخ. إن أبواب السيارات تختلف من واحدة إلى أخرى. فماذ ذنبنا نحن؟ بعضها يدور يميناً، وبعضها الآخر يساراً، وثالثة نحو الأعلى، ورابعة نحو الأسفل... بعضها يحتاج إلى دفع، بينما يحتاج بعضها الآخر إلى السحب....

وهنا يخرج السائق عن طوره تماماً:

ـ هل يعقل أن من الصعب جهل مثل هذه الأشياء التافهة؟ فالقبضة في السيارة موديل «فورد» تدور إلى اليسار، أما في سيارة «ستوديبيكر» فتدور إلى اليمين. وأما في «الشيفروليه» فتدفع القبضة بعيداً عنك، وفي «هيلمان» تسحبها ناحيتك. أما في «الفيات» فيجب أن تدورها قليلاً نحو اليمين، ومن ثم تضغط عليها. وأما «البويك» فلا أسهل من فتح أبوابها ـ في البداية تدور القبضة إلى اليسار، ثم إلى

اليمين، بعد ذلك تسحبها صوبك قليلاً، وبعدها بحدة نحو الأسفل، وبعدها تسحبها صوبك قليلاً. ثم تضغط بلطف، وتدفع ـ و ـ تفضل، فكل شيء جاهز، فقد فتح الباب.

ودون توقف راح السائق يعدد ماركات السيارات، ويشرح طرق فتح أبوابها، وكنت أستمع اليه، وكلي آذان صاغية، واختتم حديثه بقوله:

ـ يجب أن يكون الإنسان غبياً كي لايعرف مثل هذه الأمور الأولية.

وانبرى أحد الركاب يؤيد السائق في ماذهب إليه.

ـ إنها البلاهة ياأفندي، البلاهة التامة. فكل ماركات السيارات لاتزيد على عشرين ـ ثلاثين، وإذا كنت تقطن اسطمبول، ولاتستطيع معرفة مثل هذه الأمور السخيفة فليس أمامك إلا أن ترمي بنفسك في البحر.

ـ هكذا بالضبط ـ يؤكد السائق مبتهجاً ـ الأفضل لإنسان كهذا أن يموت.

ـ دعه يتناول التبن، فهو لايستحق أكثر من ذلك.

في ساحة «التقسيم» هم الراكب، الذي قرعني بما فيه الكفاية، بالنزول. لكنه لم يكد يخرج حتى زعق بصوت فظيع:

ـ آخ، آخ، آخ.

ـ ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

ـ إنه يستحق هذا، دابة، لقد انطبق الباب على إصبعه.

كان الدم يسيل على يده، بينما راح يصب جام غضبه على الباب:

- ياله من باب لعين. في حياتي لم أر أسوأ منه.

تركنا صاحبنا يطلق شتائمه، وانطلقت بنا السيارة باتجاه «الحربية». وهناك أراد أحد الركاب الانضمام إلينا، لكن الإرادة وحدها لاتكفي. فقد تحول باب السيارة إلى مايشبه بوابة الحصن. صدقوني أن السلطان محمد الفاتح، الذي كان يفتح بوابة المدينة مرة في الأسبوع، سيقف عاجزاً أمامه.

ويصرخ السائق:

- إضغط! إضغط أكثر.

- على ماذا أضغط؟ على أي زر؟

فهل تعرف أين يقع هذا الزر؟ إذا كنت لاتعرف فإنك لن تحزر. إنه داخل السيارة، خلف زجاج النافذة. بينما رحت أضغط على هذا الزر من الداخل، كان مشروع الراكب يضغط على القبضة من الخارج، ولم يكد الباب ينفتح حتى انطلقت خارجاً من السيارة.

قررت أن أتابع بقية الطريق سيراً على قدمي.

فجأة توقفت سيارة الى جانبي.

- إلى أين تريد يابيه؟

- «كورطولوش».

نظرت إلى السائق، ولما وجدته متقدماً في السن رحت أطمئن نفسي أن شيخوخته ستحول بينه وبين استخدام الشتائم. في السيارة ثلاثة ركاب. كل شيء جيد، المهم أن لايكون هناك استعصاء في الباب... الآن أصبحت أعرف أن لكل سيارة طبعها، وقبل أن ألمس قبضة الباب سألت:

- ماهي ماركة هذه السيارة؟

- «دي سوتو».

«دي سوتو» ؟ كيف يفتح بابها ياترى؟ فلست أرى أية قبضة..

- إدفع.

فأدفع.

- إضغط.

فأضغط.

- إسحب! إسحب صوبك! دورها.

- لقد دورتها.

- كم مرة دورتها؟

- مرتين.

- كلا، دورها من جديد. يجب أن تدورها ثلاث مرات...

ويهب السائق لمساعدتي، لكنه هو نفسه يقف عاجزاً . أخيراً وبجهود مشتركة - الركاب والسائق من الداخل، وأنا

من الخارج، تمكنا من فتح الباب. لكن المشكلة لم تنته، فالباب لاينغلق، ويشد السائق، وأشد أنا، دون جدوى. وحينذاك صفقته بكل ماأوتيت من قوة، لدرجة أن السيارة العتيقة راحت تتراقص ... وسمعت طقة قفل في مكان ما.

ـ الحمد لله ـ قال السائق فرحاً.

وانطلقت بنا السيارة من جديد، بينما لايتوقف السائق لحظة. فسيارته تساوي خمسين ألف ليرة، لكن الركاب تمكنوا خلال عام واحد من تحويلها إلى كومة من الخردة. فهم يفتقرون إلى أبسط المعارف في كيفية ركوب السيارة وفي طريقة فتح الباب وإغلاقه. كل شهر صيانة...

وتابع بنفس الإيقاع. ولحسن الحظ أن شتائمه هذه المرة لم تكن تتساقط على رأسي أنا.

المحطة الأخيرة ـ «كورطولوش». ويحاول أحد الركاب فتح الباب، لكنني، ومن باب التباهي بمعارفي، انبريت له:

ـ هذه السيارة ماركة «دي سوتو» إرفع القبضة نحو الأعلى، ثم إسحبها نحو اليسار...

وأسرع لمؤازرتنا الراكب الثاني فالثالث. ثم يمد السائق يده، وهو مستمر في شتائمه، لكن أحداً منا لم يتمكن من فتح الباب. وبدأنا محاولاتنا من الجهة الأخرى، لكن دون جدوى. واضح أننا قد حوصرنا في هذه السيارة... أما السائق فكان،

والعرق يتصبب منه، لايكف عن الحركة والتفنن في استخدام مفردات قاموس شتائمه....

وبينما راح أحدنا يحاول فتح الباب الأيمن انقضضنا نحن الثلاثة على الباب الأيسر، لكن البابين كليهما تحولا إلى بوابة مسحورة، يستحيل أن تفتح اياً منهما.

ـ إسحب الزر، إضغط إضغط أكثر.

ومن خلفنا تكدست عربات الترام وأكوام السيارات.

وترددت صافرات شرطي السير. وركن السائق السيارة جانباً. وينزع أحد الركاب سترته، وهو يتصبب عرقاً، بينما يرفس الآخر الباب وهو يشتم.

أما المرأة، التي كانت معنا فقد راحت تزعق بملء صوتها:

ـ النجدة ساعدوني.

ـ لاتصرخي ياهانم، لاتثيري الذعر، وإلا فقد يعتقدون أننا نريد اختطافك.

ويأتي الشرطي مسرعاً، ويتحلق المارة من حولنا.

ـ ماذا جرى؟

ـ الباب لايفتح، والركاب لايستطيعون الخروج.

وتستسلم المرأة للبكاء، بينما يتابع السائق إتحاف الركاب بأقذع الشتائم، على تسببهم في تعطيل القفل، وفي الخارج تتردد ضحكات الجمهور...

- أعطونا بلطة، أليس لدى أحدكم بلطة؟

- البلطة لاتفيد، لابد من مطرقة.

- الأفضل أن تستدعوا الحداد...

بدأ الظلام يخيم على الكون، ونحن مازلنا في الأسر. بينما يزداد عدد النظارة والنصحاء باطراد، والباب باق على حاله، لايفتح، لا من الداخل، ولا من الخارج. وينصح أحد السائقين سائقنا:

- إسمع ياصاحبي، إذهب إلى «ينيشهر»، واسأل عن المعلم يانكو، فهو قادر على فتح الباب. البارحة نقلت أحد الركاب الى «بيويوقدير» وقد جرى لنا ماجرى لك، فالباب لايفتح، طفت على خمسة محلات. ولولا المعلم يانكو لما استطعنا فتحه.

وها نحن ننطلق إلى «ينيشهر»، في طريقنا إلى المعلم يانكو، لكنه كان قد انصرف إلى البيت. فأرسلنا في طلبه. كان الجو في السيارة خانقاً. ومرت ساعة، أو ساعتان. أخيراً يصل المعلم، وبعد أن يتفحص الباب لبعض الوقت، يقول للسائق:

- اذهب إلى «طارباشي»، واسال عن المعلم ايبو، إنه معلم أقفال، ولسوف يفتح هذا الباب.

وننطلق إلى المعلم إيبو.

ويقول المعلم إيبو: - لقد علق لسان القفل في المسنن.

ـ وما العمل؟

ـ يستحيل أن تفعل شيئاً تحت جنح الظلام، أما في النهار فسنفتحه إن شاء الله.

وبلسان واحد رحنا نتوسل اليه:

ـ أنقذنا يامعلم إيبو، كل الآمال معلقة عليك، سندفع المبلغ الذي تريد، مئة ، مئتين...

ومن جديد عادت المرأة إلى العويل:

ــ آه ياإلهي، ماذا أفعل؟ هل من طريقة لإخبار زوجي...

أخيراً أشفق المعلم إيبو علينا. وبدأ العمل. وعند الساعة الثانية عشرة ليلاً قال، وقد أنهكه التعب:

ـ لايمكن فتحه. إنها قصة طويلة. اخرجوا من النافذة.

كانت المرأة أول من حاول الخروج. في البداية أخرجت رأسها من النافذة، وراح المارة يشدونها من رأسها ومن وسطها، فأخرجوها. وكان أحد الركاب بدينا جداً، وعلى الرغم من كل مابذلنا من جهد فإننا لم نستطع إخراجه.

وجاء دوري، وتمكنت أخيراً من تنشق هواء الحرية، بملء رئتي.

بعد ذلك أعدنا الكرة مع البدين، ودعيت للمؤازرة.

وبعد جهد جهيد أخرجناه حتى وسطه، وهنا انحشر تماماً، ولم يعد بمقدورنا لاسحبه ولادفعه، وهكذا بقي نصفه الأعلى خارج السيارة، بينما النصف الأسفل داخلها.

- ساعدوني، أرجوكم - راح البدين يتوسل.

ولم ألبث أن غادرت المكان دون أن أعرف ماجرى لصاحبنا. لكن لايصعب على القارىء أن يدرك أنني منذ ذلك الحين لم أعد أذهب إلى «كورطولوش» إلا سيراً على قدمي.

يا ابني - يا أفندي

اجتزت الباب الزجاجي الدوار، وسألت البواب:

- كيف أستطيع الوصول إلى السيد المدير؟

تسمر البواب في مكانه بعظمة، وانتفخ غروراً، كما ينفش الديك الرومي ريشه، وبحركة متعالية أشار إلى اليمين.

على اليمين كان باب المصعد مفتوحاً، لكن أحد الأشخاص أوقفني:

- إلى أين؟

- مكتب المدير.

وتمتم الشخص بكلمات مفعمة بالاستياء والامتعاض، ثم خاطبني بصوت سوداوي:

- يجب أن تسأل أولاً.... وإلا فلماذا نحن هنا؟

- عفوا، إنني أريد مقابلة السيد المدير...

- لن أنقلك وحدك، انتظر حتى يأتي ثلاثة آخرون.

ـ لكنني في عجلة من أمري...

ـ وما دخلي أنا؟ إن المصعد لايقل أقل من أربعة.

وضع هذا الشخص يديه خلف ظهره، وراح يتبختر أمامي، وهو في غاية السرور للانطباع، الذي تركه لدي.

اقترب من المصعد زائر آخر، فزعق به الشخص بصوت مخيف:

ـ إلى أين أنت طائر؟ ألا ترى؟ لايوجد إلا اثنان فقط...

أخيراً أصبح عددنا أربعة، واكتمل النصاب، بعد أن انضمت إلى قافلتنا امرأة، وللحال اندفعنا نحو المصعد، تعلو وجهنا ابتسامة النصر. لكن الشخص أغلق باب المصعد أمام أنفنا، ثم أدار المفتاح في القفل، ودسه في جيبه

ـ لكننا نريد الصعود.. ـ نطقت المرأة بوجل.

وقال عامل المصعد، بعد أن تنازل وألقى عليها نظرة:

ـ كان يجب أن تأتوا في الوقت المناسب. الآن سيقرع جرس فرصة الغداء... والآن تفضلوا في الواحدة والنصف...

ـ وماالسبب في ذلك؟

ـ لأن المصعد لايعمل في استراحة الغداء، هذا هو النظام المتبع ـ قال عامل المصعد، ثم غرز إصبعه في ميناء ساعته وأضاف ـ تعالوا في الواحدة والنصف، وحينذاك ستصعدون.

لم يكن لدي أي عمل عاجل مع المدير، كل مافي الأمر أنني قررت زيارة تلميذي المفضل، وتهنئته بتبوئه هذا المنصب الرفيع. كنت أعتقد أنه من حقي أن أعتز بسرعة ارتقائه السلم الوظيفي، لأنني حاولت منذ أن كان طفلاً صغيراً، أن أحبب إليه المطالعة، حتى أنني وضعت مكتبتي تحت تصرفه. ولكم كنت أشعر بالاعتزاز حين كان يردد على مسامعي: «أنت ياأستاذ من جعل مني إنساناً». بعد ذلك سافر إلى أوربا، ولم نر بعضنا سنوات عديدة.

تناولت طعام الغداء في المطعم، ثم تمشيت في الشوارع المجاورة، وأنا أتفحص واجهات المخازن، وفي منتصف الثانية توجهت نحو المصعد المنشود، وأنا مفعم بالحيوية والنشاط.

وكان أمام المصعد طابور طويل. أخيراً حشر أربعة من المحظوظين، وكنت في عدادهم، أنفسهم في المصعد، ومن جديد ذكرت عامل المصعد أنني أريد مكتب المدير.

واستمر المصعد في ارتفاعه، وبالتدريج خرج الجميع، ولم يبق في المصعد إلا أنا مع العامل. وحين توقف بنا المصعد في الطابق الأخير فتح العامل الباب على مصراعيه، فسألته:

- هل مكتبه هنا؟

- من؟

ـ لقد سبق وقلت لك أنني أريد مكتب السيد المدير.

ـ ياسلام ... وهل بمقدوري أن أذكر الجميع هنا... إخرج وانزل على السلالم طابقين.

ونزلت، فرأيت بهواً شاسعاً وممراً عريضاً تتوزع أبواب المكاتب على جانبيه. وأمام كل مكتب يقف الحاجب المناوب.

دنوت من أقربهم، وسألته:

ـ أين مكتب السيد المدير؟

فأشار بطرف عينه إلى أحد الأبواب.

ـ هل هذا مكتب السيد المدير؟ ـ سألت الحاجب، الجالس قدام الباب المذكور.

ـ ألا تعرف القراءة؟ ـ سأل الحاجب بامتعاض.

وقرأت اللوحة ـ «نائب المدير».

ـ أين مكتب المدير إذن؟

وبدلاً من الجواب طوح برأسه بزهو في الاتجاه المعاكس.

فيممت وجهي شطره، حيث طالعتني ثلاثة أبواب، لايحمل أي منها أية لوحات. وعند النافذة كان ثمة رجل كهل يستند إلى الافريز، وهو يقرأ جريدة.

ـ عفواً، أين مكتب السيد المدير؟

لكنه لم يرفع عينيه عن الجريدة.

ـ أي مدير؟

أربكني هذا السؤال المباغت، فوقفت حائراً لا أدري بماذا أجيب.

ـ المدير الأول، أم الثاني، أم المدير الثالث؟

ـ الواقع أنني لا أعرف... اسمه شيتين.

ـ هم، أهو ذاك النحيل؟ الأحدب.... جاحظ العينين... أسنانه بارزة من فمه....

«لقد طفح الكيل فعلاً» فصحت بصوت بارد:

ـ أريد مكتب شيتين بيك.

ـ فهمت، فهمت. ذاك الأقرع... طبعا طبعا إنه هو. يسير كالأخرق... أليس كذلك؟ وحين يتحدث لاتفهم من كلامه شيئاً... إنه هو، ومن غيره؟ إذن فأنت تريد مكتب المدير العام... أبو الأنف المجدوع... إنه نفسه المدير العام... وماحاجتك إليه؟

ولم أتمالك نفسي فانفجرت:

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ إنني حاجب المدير العام.

ـ لكن أليس عنده سكرتير؟

ـ عنده، وماذا تريد؟

ـ أخبره أنني أريد أن أراه. أي باب يجب أن أدخل؟

ـ هل موعدك اليوم؟

- لا....

- إذن فلن يستقبلك سيادة المدير العام.

- إن مهمتك أن تدخل وتبلغه.

- ياسلام! هذا ماينقصنا، أن أبلغه بقدوم كل من هب ودب.

- أعط سيادة المدير هذه - ومددت له بطاقة زيارتي.

يأخذ الحاجب البطاقة بامتعاض، يقلبها في يده، ومن ثم يتجه بكسل نحو أحد الأبواب، ثم يختفي خلفه، لكأن الأرض انشقت وابتلعته.

عبثاً أمضيت الوقت بانتظاره، وهكذا غادرت المبنى بخفي حنين.

في طريق عودتي إلى البيت خطرت لي فكرة مفاجئة، وبالفعل لماذا لا أتصل بشيتين بالهاتف؟ وللحال عرجت على مركز البريد، واتصلت به. تعرف علي شيتين فوراً، ومن صوته أحسست أنه صادق في سروره بسماع صوتي.

وختم حديثه معي بقوله:

- أرجوك، أتوسل إليك أن تمر علي.

- حسناً إنني في طريقي إليك.

لم أكد أدنو من الباب الدوار حتى وجدت شيتين هناك بانتظاري، وحال رؤيته لي اندفع نحوي، وأخذني بالأحضان.

ـ كم أنا مسرور بتشريفك. لو كنت أعرف عنوانك الجديد لزرتك.

وفي المصعد قلت له:

ـ إنني أشعر بالحرج ياشيتين. لماذا خرجت لاستقبالي لدى الباب؟

فضحك، وهمس في أذني، لكي لايسمع عامل المصعد:

ـ سأخبرك بكل شيء فيما بعد.

دخلنا المكتب، حيث الأثاث الوثير الفاخر، الذي يزوغ البصر لمرآه. ياسلام، مكتب مدير عام حقاً.

ـ مازلت ياعزيزي شيتين شاباً على عهدي بك، لكأنك مازلت طالباً. هل بلغت الثلاثين؟

ـ الثالثة والثلاثين ياآغا.

ـ أن يتبوأ المرء مثل هذا المنصب الرفيع في سن الثالثة والثلاثين، شيء رائع. من كل قلبي أهنئك. الواقع أن مظهرك يوحي بأنك أصغر من سن الثلاثين.

ـ بسبب هذا المظهر بالذات ياآغا لايريد أحد أن يعترف بي مديراً عاماً. فلو لم أستقبلك إذن لما استطعت دخول مكتبي أبداً.

وقررت أن لا أخبره بما تعرضت له اليوم.

ـ أجل ياآغا، لقد فرضوا علي طوقاً كاملاً من العزلة عن العالم، فلا يسمح لأي كان بالدخول علي.

وسألته بحيرة:

ـ من هذا الذي يستطيع عزلك عن الجميع؟

ـ كم أنا سعيد بقدومك ياآغـا. فأنـا أهفـو بكـل كيـاني أن أبادل أحداً الحديث، وأخبره بما يجري لي هنا.

وبعد فترة صمت قصيرة شرع شيتين يروي لي قصته:

ـ بعد عودتي من أوربا أرسلوني أولاً إلى أنقرة. وهناك لم أمكث طويلاً. وقبل تسلمي هذا المنصب كان يشـغله رجـل كهل، بدين ووقور. كل المؤهلات متوفرة لديه:

من الأمام يكاد كرشه يزاحم ذقنه، ومن الخلف التصقت كدانته بظهره. وما إن رآني حتى راح يتلوى ويتزلف:

«شيء جيد ياابني ـ ياأفندي العزير أنـك صـغير هكـذا، إن الله سيشملك بواسع رحمته. أرجو لك التوفيق في عملك». ومنـذ ذلـك الحيـن وهـو لايكـف عـن منـاداتي بــ «يــاابني ــ ياأفندي.... »

وبدأت أشعر بالغثيان لدى سماع هاتين الكلمتيـن. وفـي ذات مرة لم أتمالك نفسي، وقلت له: «إن اسمي بالمناسبة هـو شيتين». فتظاهر بالاستياء، ومع هذا فقد استمر يناديني باللقب السابق في حضور مرؤوسي الموظفين والمستخدمين وعمـال المصعد. وعند الاستلام والتسليم لـم يكـف يكـرر: «والتجربـة ضرورية أيضاً... التجربة ياابني يـاأفندي ضروريـة أيضـاً». وبـالتدريج بـدأت أفهمـه. فالمسكين يعــاني مـن الكثـير مـن

العقد:هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يشعر بأن كرامته قد أهينت. تصوروا موقف هذا الرجل الكهل وهو يقوم بالتسليم لشخص في عمر ولده. ـ «إذا ماواجهتك ياابني ياأفندي أية مصاعب فبوسعك دائماً أن تلجأ إلى حاجبنا العم عبد الله. وصدقني أنه لن يتوانى عن مساعدتك أبداً».

ـ اعذرني يابيه أفندي فأنا لا أريد أن أتعلم من الحاجب.

ـ ماهذا الكلام ياابني ـ يا أفندي. فهل يصح أن نحتقر الانسان لمجرد أنه حاجب، إنني في خدمة الدولة منذ ستة وثلاثين عاماً، تبوأت خلالها المناصب الرفيعة، وصدقني ياابني ياأفندي أنني تعلمت من الحجاب الكثير من الأشياء النافعة. علماً أن العم عبد الله أوسعهم خبرة. إن من مصلحتك أن تقيم علاقات جيدة معه».

وهنا ضغط الجرس، وأضاف مخاطباً الحاجب الداخل:

ـ هذا ياعم عبد الله ابني الأفندي. إنه المدير العام الجديد. لكنه فتي جداً وعديم الخبرة. فهلا مددت له يد العون، وآزرته، كما آزرتني، كي يسير كل شيء على مايرام، كما في الماضي. ابذل قصارى جهدك ياعزيزي، فأنا أعلق كبار الآمال على طيبتك».

ـ لسوف أساعده كما لو أنه ابني، من لحمي ودمي. ومن واجبنا أن نساعده.

وهنا لم أتمالك أعصابي فصحت به:

ـ انقلع من هنا.

واختفى الحاجب في الحال.

على هذا النحو راح المدير العام القديم يحاول «السهر» على هيبتي و «توطيدها».

وفي اليوم الأخير قال لي فجأة ـ: «دعني ياابني ـ ياأفندي أعرفك اليوم على موظفينا».

ـ لاتتعب نفسك يابيه أفندي. سوف أتعرف عليهم بنفسي.

لكن الموظفين ظلوا يقدمون فروض الطاعة له، أما أنا فلم يكونوا يلاحظونني، حتى حينما ألتقي بهم وجهاً لوجه. ووجدت نفسي مرغماً على أن أوافق.

قادني المدير العام القديم إلى الصالة متأبطاً ذراعي بكل رفق. إنك تعرفني ياآغا بيه، فأنا لست بالسهل الانقياد، لكنني سايرته، وأنا أقول في نفسي: «لاتحرم هذا الختيار من فرحته الأخيرة، وبعد ذلك فليذهب إلى حيث ألقت».

وضع العجوز الدجال يده على كتفي،وبدأ خطبته العصماء:

«أيها الموظفون الأعزاء! اسمحوا لي أن أقدم لكم مديركم العام الجديد».

وبعد هذه المقدمة أخذني من ذقني بلطف، كما يؤخذ الطفل، وأضاف: «إنني واثق أنكم سوف تبذلون قصارى

جهدكم، وتبدون كل الاحترام لابننا الأفندي العزيز، نحو مديرنا العام الشاب». ثم راح يربت على ذقني بحنان أبوي.

ولاتسل عن مدى خجلي، لقد تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني، لكن ماالعمل؟.... هل أودعه بعلقة ساخنة؟.... أم هل أدير ظهري وأنصرف؟....

وارتبكت بسبب المفاجأة، ولم أعد استطيع العثور على المخرج المناسب، وقفت ساكنا لا أريم، أوزع الابتسامات كما المغفل. وفي هذا الوقت تابع الخطيب: «الرفاق المحترمين! جميعكم يعرف المثل القائل: «من وهب العقل لايسأل عن العمر». إن صديقنا الشاب، على الرغم من عمره الفتي، قد عاش في أوروبا، وطالع الكثير من الكتب. بودي أن أعرب عن ثقتي بأن موظفينا سيقومون، مراعاة لتلك المشاعر الطيبة، التي يكنونها لي، بتنفيذ كل توجيهات ابننا الأفندي العزيز. مديرنا العام الجديد الفتي. وأرجوكم ياأصدقائي أن لاتنسوا مشاطرة ابننا الأفندي، سيادة المدير العام، تجربتكم القيمة. عدوني أنكم ستبذلون قصارى جهدكم من أجل منح مديرنا العام الفتي تجربتكم الضخمة». ويتردد الهتاف المخلوط بالقهقهات «نعدك»، بينما أنا أقف أحمر كما السرطان، والابتسامة الحجرية على وجهي. وشعرت أنه لابد من أن أقول شيئاً ما، لكي أنقذ الموقف. وبدأت «اسمحوا لي....»لكن المدير القديم راح يضمني ويعصرني في حضنه

لدرجة أنني لم أعد استطيع أن أنطق بكلمة، حتى ولا أن أتنفس، وبعد ذلك يرفعني عن الأرض، ويقبلني على خدي . ومن ثم يرفع يده بطريقة مسرحية، ويصيح: «وداعاً أيها الأصدقاء!»، ثم ينصرف، وهو يمسح دمعة عابرة.

واندفع الجميع في أثر المدير القديم، وهم يمسحون دموعهم. أما النسوة، ممن تقدم بهن العمر، فقد أجهشن بالبكاء.

وبقيت في وسط الصالة وحيداً.....

في تلك الآونة ياآغا بيه كنا نعيش عند أخت زوجتي، ونبحث عن شقة. والواقع أننا بدأنا البحث قبل ذلك بوقت طويل، منذ أن انتقلنا من أنقرة، لكننا لم نعثر على الشقة المناسبة، فالأسعار كاوية، لاقدرة لنا على تحملها. وزادت الأوضاع السائدة في العمل في الطين بلة. فكل من أتحدث إليه من المرؤوسين ينظر إليّ برقة ويقول: «ياابني ـ يافندي»، حتى ضاربة الآلة الكاتبة تقترب مني وتناديني «ياابني ـ يافندي...»

إفعل كيت يابني. إفعل كيت يابني. لكأنني لست مديراً عاماً، بل يتيم جيء به من أحد الملاجىء...

وحين بدأت أصنف الأوراق راحت رأسي تدور.

حتى أبسط الأمور متشابكة إلى أبعد الحدود: فالاحتيال يسهل إخفاؤه في ظل الفوضى واللخبطة. وكنت كلما بدأت

شيئاً لا أعرف نهايته، ولم يكن بمقدوري أن اسأل أحداً، لأن الجميع كانوا متكافلين متضامنين. الجميع، بدءاً من الحجاب، وانتهاءاً بكبار الموظفين، كانوا يمارسون النصب والاحتيال.

ولكي أقوم هذا الاعوجاج كرست كل وقتي للعمل، ووصلت الليل بالنهار. وفي ساعة متأخرة من مساء أحد الأيام، بينما كنت منكباً على العمل، دخل حاجبي ببوز يتكلف اللطف إلى درجة تبعث على الغثيان، وقال:

- يابني - ياأفندي لقد أوصاني الرئيس السابق أن أصونك كما أصون ولدي......».

وكدت أثب عن الكرسي، وأنا أصرخ به:

- انقلع من هنا.

لكنه ظل ينظر إلي نظرة الأب الحنون، الذي يغفر لولده المحبوب كل شيطناته، ويقول:

بالطبع سأخرج يابني - ياأفندي ، لكن هلا أصغيت إلي قليلاً....»

وتابعت زعيقي بكل ماأوتيت من قوة:

- إن - قلع»!

بيد أنه لم يول زعيقي أي اهتمام، بل ظل واقفاً في مكانه، وهو لايكف يثرثر:

- إنك تأتي يابني - ياافندي إلى العمل في الصباح الباكر، مع أقل المستخدمين مرتبة، وتغادر معهم، لابل وحتى

بعدهم. وإذا ماستمر الأمر على هذا النحو فإن الناس ياابني يا أفندي، سيعتبرونك موظفاً تافهاً، ولن يولوك الاحترام اللازم. اعذرني ياابني - ياأفندي، لكنك تخطيء بعدم رغبتك بالاستماع إلى كلامي، والاستفادة من تجربتي على مدى سنوات طويلة، فأنا أعمل هنا منذ أربع وعشرين سنة. تصوركم من المدراء مر بين يدي. إنني في عمر أبيك ياابني - ياافندي.....»

أنت تعرف ياآغا بيه أنني سريع في اتخاذ القرار. باختصار لقد قررت فصله فوراً، فصرخت به «غور من هنا، ولا تطأ عتبة هذه المؤسسة بعد الآن».

لم يكد يغلق الباب من خلفه حتى جاء إلى مكتبي نائبي والمدير الثاني، وشرعا في محاولاتهما الرامية إلى إقناعي بالعدول عن قراري. وكان أحدهما يبدأ الحديث فينبري الآخر مؤكدا ماذهب اليه. «لاشك أنك ياابني ـ ياأفندي، على حق، لكن هذا الشخص من أوسع العاملين حنكة وأكثرهم دراية.. إن رأيك ياابني - ياأفندي هو الأصوب بالطبع، لكن لاداعي لفصل هذا الحاجب... إننا ننصحك كرفاق أكبر منك سناً. وذلك لمصلحتك أنت.....»

ولايكاد يغادر هذان حتى يتوافد آخرون. وكلهم يؤكد الشيء نفسه. وهنا أدركت أن حبلاً واحداً يربطهم جميعاً، وأنهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وإن أنا بقيت

على قراري في فصل هـذا الحـاجب إذن لسـوف يقفـون كلهـم في وجهي، فكيف لي بالعمل معهم! وهكذا فقد نقلته إلى مكـان آخر. لكنهم لم يتوقفوا، وصاحوا صيحة رجـل واحـد، «كيـف تبعد مثل هذا الانسان المحنك عنك، فهو في مكانه القديم أكثر ضرورة» - هكذا أصروا على رأيهم.

وفي ذات مرة دخل علي المكتب مرة أخرى، وبدأ:

«اسمح لي يابني ـ يـاأفندي... لاتغضـب مـن كلامـي، لكن المدير القديم طلب مني أن أهتم بـك اهتمـامي بـابني مـن لحمي ودمي.. إنك تريد أن تأخذ أعمال الجميع علـى كـاهلك. لكـن هـذا لاينفـع يـابني ـ يـاأفندي... فـدع الآخريـن يعملـون أيضـاً...» وبالكاد تمـالكت نفسـي. وبقيـت جالسـاً، وأنـا ابتسـم ابتسامة عوجاء، ثم قلت له: «طيب، سوف آخذ كلامـك بعيـن الاعتبار...».

في اليوم التالي عاد يقتحـم علـي غرفـة مكتبـي. «لمـاذا تستقبل يابني - يـاافندي جميـع الـزوار دون اسـتثناء؟ إن مثـل هذه البساطة في التعامل تقوض هيبتك وهيبة مؤسستك، يجـب أن يفهم النـاس أن المسـائل الحقيقيـة لاتحـل بهـذه البسـاطة... يشهد الله أن كل مايهمني هو مصلحتك .. سيان عنـدي الآن، فلم يعد أحد يحسب لي حساباً، وأصبحوا يدخلون مكتبـك دون استئذان....».

وجاء في يوم آخر يحمل إلي نصيحة: لاتستقبل أياً كان بدون تسجيل مسبق، فليسجل الراغبون أسماءهم قبل أسبوع، وفي الموعد المحدد يجب أن أتظاهر أنني مشغول، وقبل أن يصل الزائر إلي يجب أن يتفاوض مع البواب والحجاب والموظفين، ورؤساء الأقسام، ومع المدراء الثلاثة، وإلا ـ يضيف عبد الله ـ فان أحداً لن يقيم لك وزناً ياابني ـ ياافندي. يجب أن يتحلى المدير العام بالمظهر الذي يبعث على الاحترام، وأن يكون الوصول إليه شبه مستحيل...».

هل أدركت ماذا وراء الأكمة ياآغا بيه؟ إن أياً منهم لايعيش على راتبه. الجميع يمارسون أعمالاً أخرى تدر عليهم المال الحرام، وإذا ماأضفنا إلى ذلك الرشاوى والبخشيش تصبح الأمور ممتازة. ومع ظهوري عندهم بدأ مجال هذا النشاط يتقلص.

وهكذا تراني ألف وأدور في العمل كما السنجاب في القفص، بينما لايزال أهلي جادين في البحث عن شقة. وحين اعتقدوا أنهم وجدوا ضالتهم، لقاء ستمائة ليرة في الشهر، تبين أن صاحبها يريد أجرة سنة سلفاً. وتقول لي زوجتي:

ـ صاحب هذه الشقة موظف عندك. هلا تحدثت معه، فقد يتخلى عن طلب السلفة.

ـ ومن يكون؟

ـ أعتقد أنه أحد المديرين. اسمه عبد السلام بيه.

ورحت أستعرض أسماء الجميع في فكري ـ لكنني لم أتذكر هذا الاسم.

وفي صباح يوم الأحد ذهبت برفقة زوجتي لرؤية الشقة. واقتربنا من بيت كبير، من ثلاثة طوابق، كان صاحب البناية يسكن في إحدى شققها. هل تتصور من يكون؟ إنه حاجبي العم عبد الله.

فما رأيك ياآغا بيه؟ أنا مدير عام المؤسسة لا أستطيع العثور لنفسي على شقة تناسبني من حيث الأجرة، بينما يملك حاجبي بناية من ثلاثة طوابق. وقال لي بدون مقدمات: ياابني - ياافندي (تصور ذلك بحضور زوجتي) بما أنني وعدت الرئيس القديم أن اسهر عليك فلن آخذ منك أجرة سنة سلفاً، بل سأكتفي بأجرة نصف سنة».

وقبل أن ألحق فأتفوه بكلمة واحدة أضاف قائلاً:

- بمقدورك أن تكسب أجرة سنة خلال شهر واحد.

- كيف؟

- كل ماعليك القيام به أن لاتسمح لكل من هب ودب بالدخول عليك فنحن معشر الحجاب والأذنة نحتاج إلى مصدر رزق...».

باختصار عدت بخفي حنين... هكذا هي الحال ياآغا بيه. عما قريب سيمضي على وجودي هنا شهران. وحتى الآن لا أعرف كيف أقوم الاعوجاج ولا في أي مجال. لقد

ذكرت لك أنهم متكافلون متضامنون. وإذا ماسمحوا لي باكتشاف ولو واحدة من عمليات التلاعب، إذن لانفرط عقد السلسلة فوراً، ولهذا ضربوا من حولي طوق الحصار هذا، ولايسمحون لأحد بالوصول إلي. حاولت أن أتصدى لهم، فأحدثت مكتب استعلامات في الطابق الأول، لكنهم يغطون اللوحة الموجودة فوقه، كي لايعرف أحد طبيعة عمله.

ولهذا السبب خرجت بنفسي لاستقبالك، وإلا لما كنت تمكنت من رؤيتي أبداً، فالناس يمضون نصف شهر في محاولة اقتحام مكتبي، لكن دون جدوى.

وسألت تشيتين، بعد أن سمعت قصته:

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أنوي السفر إلى أنقرة لمقابلة الوزير، فهو بدوره جديد في منصبه، وأنا أعرفه جيداً، إنه إنسان رائع. لسوف أصارحه بكل شيء.

ـ طيب وبماذا يستطيع أن يساعدك؟

ـ إنني مدرك تماماً أنه غير قادر على تغيير جميع العاملين في مؤسستنا، لكن الأمور لن تسير إلا إذا تم ذلك... فليغير،ولو ثلث هذا الطاقم.

ـ ليكن الله في عونك....

فارقت شيتين وأنا اشعر بالحزن والأسى.

بعد عدة أشهر نبا إلي أن شيتين قدم استقالته.

وفيما بعد جمعتنا المصادفة على متن الباخرة. كان منزعجاً جداً. وحين سألته عن سبب استقالته أجاب بقوله:

ـ قابلت الوزير، ورسمت له صورة مؤسستنا. فقال لي: «إنني أعرف كل شيء، والدواء الوحيد هو الفصل والفصل. بحيث لايقتصر الفصل على طاقم مؤسستكم، بل يجب أن يشمل طاقم الوزارة برمته. طيب لنفرض أننا سرحناهم، فمن سيحل محلهم. أنت ترى بنفسك أننا لسنا قادرين على اتخاذ إجراء كهذا. وعلى سؤالي ـ «ماذا سنعمل؟» أجاب الوزير: «إما أن نستقيل وإما أن نعتاد». وبعد ثلاثة أشهر قدمت استقالتي.

ـ والوزير؟

ـ لايزال وزيراً، لكنني سمعت أنهم سيستبدلون به آخر، ألم تسمع بالأزمة الحكومية؟

ـ بالطبع فتغيير الوزير أسهل من تغيير جميع موظفي الوزارة.

ـ إن المشكلة ياآغا بيه ليست في الوزارة وحدها....

ـ طيب وماذا تفعل أنت الآن؟

ـ لاشيء ... عاطل عن العمل....

بعد هذا الحديث مر وقت طويل لم أر شيتين خلاله.

لكنني سمعت أن نجمه بدأ يسطع في ميدان السياسة، وبدأت الصحف تتناقل اسمه، ثم أصبح مسؤولاً كبيراً، فوزيراً

لكن ليس في الوزارة التي سبق أن عمل مديـراً عامـاً لإحـدى المؤسسات التابعة لها. حتى أنني تمنيت لو ترأس هذه الوزارة بالذات... إذن لأعاد النظـام إلـى نصابـه فيهـا، مـن يـدري... ومع هذا فقد فرحـت بذلـك فهـو، وإن لـم يحسـن الوضـع فـي الوزارة، فقد حسنه في جزدانه.

وهكذا فما إن قرأت في الصحف نبأ تعيينه حتى أرسلت له برقية إلى أنقرة: «تهانينا يابني - ياأفندي».

ولـم يلبـث أن بعـث لـي رسـالة يدعونـي فيهـا للقـدوم لزيارته. وسافرت إلى أنقرة، حيث وظفني في وزارته.

صحيح أن الراتب ليس بالكبير، ألف وثمانمائة ليرة فـي الشهر، لكنني لا أعمل إلا قبل الظهر. وحتـى إذا تغيبـت عـن العمل بتاتا فإن أحداً لايسأل عني لأن أحداً لايحتاج إلي.

ومع هذا فإنني أحاول أن أتردد على العمل يوميـاً، هـذا إذا لم تكن هناك أمور عائلية طارئة.

شيء ممل أن تبقى في البيت النهار بطوله....

أصل الداء

ـ ألو! ألو... أهـذا أنـت يـارفعت بيـه؟ مرحبـا يـاصديقي! أيـن كنت كل هذه المدة؟ منذ عدة أي
م لم أرك في أي مكان.

ـ أهذا أنت ياعزيزي كامل بيه؟ آخ ياكامل بيه...

ـ لقد شـعرت بـالقلق حيـن لـم أرك فـي حفـل الاسـتقبال لـدى المحافظ. ثم إنك لم تعد تحضر سهراتنا. ولم يعد «للطرنيـب» حلاوته بدونك... هل صحتك على مايرام؟

ـ الأفضل أن لاتسأل عن صحتي.

ـ خير إن شاء الله.

ـ إنني مريض ، مريض....

ـ وي، وي، وي، عافـاك اللـه يـاعزيزي. لقد أزعجتنـي بهـذا الخبر كثيراً. لكن ماهو مرضك؟

ـ الحمى القراصية.

- إنني مصاب بالشري.
- الشري؟
- أجل. إنني لا أكف أحك جسمي، يالها من حكة لاتطاق.
- معقول؟ وي، وي، وي، وفي أي مكان؟
- لايوجد في جسمي مكان لايحكني....
- له، له. وهذا المرض اسمه الشري؟
- نعم، كما يقول الأطباء.
- وكيف أصابك هذا المرض؟
- أنا نفسي لا أعرف. لقد حضّروا في البيت ديكاً رومياً محشواً. وجبة لذيذة، يسيل لها اللعاب. فلم أستطع كبح جماح نفسي، وأكلت ثلاث قطع. هل تعتقد أن هذا هو السبب؟
- ماذا تقول؟ أن يصاب المرء بالمرض بعد ثلاث قطع من الديك الرومي المحشو! لو كان الأمر كذلك، إذن لكنت قد أصبت منذ عهد بعيد بهذا الشري إياه. فأنا ألتهم ديكا روميا بحاله، وكل شيء على أحسن مايرام.
- ألم تصب بالحكة؟....
- أبداً.
- لكنني، قبل الديك الرومي، كنت قد أكلت وجبة «مقالي»!!..
- أية «مقالي»؟
- «كلاوي».

ـ «كلاوي»؟ هل سمعت في حياتك أن «مقالي الكلاوي» تسبب الحكة؟ لعلك أكلت شيئاً آخر؟

ـ لقد أكلت شيئاً، لكنني لا أستطيع أن أتذكر ماذا بالتحديد. في البداية قدموا لي، لفتح الشهية، سلطة خيار، مع التوابل والثوم.

ـ ابداً ياعزيزي، فالثوم يجلب النعاس، لكنه لايسبب الحكة.

ـ أي نوم إن الحكة تبعد النوم عني. حتى لعدوي لا أتمنى مثل هذه المصيبة. بعد الأكل قدموا لي الحلاوة.

ـ لابد أنها لذيذة .

ـ من ناحية اللذة ـ ياسلام، لكن جسمي كله امتلأ بالدمامل.

ـ لادخل للحلاوة في هذا ياعزيزي، فلا تلق عليها الملامة. البارحة أتيت على صحنين ، ولم يحدث لي شيء.... ليست هي السبب...

ـ طيب... ولكن ماهو السبب؟ على العشاء كان لدينا سمك مع المايونيز....

ـ وأي ضرر يمكن أن يحدثه السمك المتبل بالمايونيز؟ إنني أعرف بالتجربة أن ليس ثمة أي ضرر.

ـ لكنني أكلت اثنتين دفعة واحدة.

ـ حتى ولو أكلت اثنتين وعشرين. مادام متبلاً بالمايونيز فلا ضرر من ذلك. كم أحب هذه الوجبة.

ـ انتظر، فما إن أتعافى بعونه تعالى، حتى نتناولها معاً...

ـ المهم أن تتعافى بسرعة. إذن فأنت لاتعرف سبب إصابتك بهذه الحكة؟

ـ إسمع، لعلها بسبب فطائر الحلوى، المحشوة بالقشدة؟

ـ غير معقول، فهذه وجبتي المفضلة.

ـ لكنني التهمت أربعة أكواز من القشدة المجففة، قشدة الجاموس الطبيعية...

ـ وهل تسبب القشدة الدمامل؟

ـ طيب وما هو السبب إذن؟

ـ ربما أكلت شيئاً آخر.

ـ لم أتناول شيئاً ضاراً. فقط عدة قرون من الموز، وجوز الهند....

ـ وهل أكلت الكثير؟

ـ ليس بالكثير جداً.

ـ إن جوز الهند دواء ناجع، ولايمكن أن يحدث ضرراً. ياله من ثمر مفيد...

ـ ماهو السبب إذن؟

ـ ربما يكون الأطباء على خطأ، ولست مصاباً بالشري...

ـ ربما، لكن كل جسمي يحكني...

ـ ليس كل طفح شرياً..

ـ وماذا لدي إذن؟

ـ شيء آخر.

ـ أوخ لقد تذكرت، قبيل النوم أكلت بعض اللوز المملح والفستق المحمص... ربما كانا، هذان اللعينان، سبب الإصابة...

ـ ماهذا الكلام أنا أيضا أحب تناول المكسرات في الفراش ليلاً.

ـ ولم تسبب لك الحكة؟

ـ أبداً... بل إنها تزيد الإنسان قوة...

ـ هل يعقل أنني تسممت بالحليب؟ فأنا دائماً أشرب قدحاً قبل النوم. أما البارحة فقد شربت اثنين....

ـ الحليب صحة، يارفعت بيه... ومهما شربت منه فلن تصاب بأية حكة.

ـ في الأصباح أخفق بيضتين طازجتين، وأشرب الحليب، لعل هذا هو السبب، مارأيك؟

ـ لو كان الأمر كذلك إذن لبقيت ثلاثين سنة أحك جسمي...

ـ في مساء ذلك اليوم المنحوس أكلت الكافيار، الكافيار الأسود مع الزبدة والجبنة البيضاء، أو لعلها جبنة «القشقوان»، لست أذكر كم أكلت، لكنه ليس بالقليل....

ـ مهما أكلت من الكافيار لايمكن أن يلحق بك الضرر.

ـ ربما تكون على حق. طيب ومن أين جاء هذا الشري؟

ـ فكر جيداً. تذكر ماذا أكلت غير ذلك؟

- ماذا أكلت؟ ماذا أكلت لست أذكر ماذا أكلت البارحة، فما بالك بالحديث عن أسبوع مضى. ربما كان مرضي بسبب الخضراوات المحشوة؟ فمع لحم الضأن المقلي قدمت الخضراوات المحشوة....

- أية خضراوات؟

- الباذنجان بزيت الزيتون... لم أستطع تمالك نفسي، فأكلت ست وحدات، أو سبعاً.

- بزيت الزيتون؟

- نعم...

- إذن لاضير في ذلك، فهي وجبة خفيفة، وماذا أيضاً؟

- بعد ذلك قدمت المعكرونة... المشوية مع الجبنة الكاشارية... اسمع ربما الخل هو السبب؟

- وهل شربت الخل؟

- كلا... بل السلطة كانت متبلة بالخل.

- الخل ينشط عملية الهضم...

- وكانت الفليفلة الحادة أيضاً في السلطة... لكنني شربت بعدها المياه المعدنية...

- وماذا تناولت أيضاً، حاول أن تتذكر.

- ماذا تناولت؟ ماذا تناولت؟ لم أشرب غير ذلك، فقط قدحاً من الويسكي بالصودا، وشعرت بالحرقة، فشربت كأساً من المياه المعدنية، وبلعت ملعقة من الصودا... أيوه، أيوه... في

المطعم تناولت مع صاحبي وجبة كباب، ثم ثلاث فطائر باللحمة... اللحم المشوي مع الرز والفريكة. لم أضع إلا القليل من الخردل.

كم أحب اللحم مع الخردل... لو أنك تراني الآن: سماعة الهاتف في يدي، وبالأخرى أحك جسمي كما الجربان... ثم تناولت الفطائر، لعلها هي السبب؟ وسلطة السمك مع البيض والأسقمري... لكن هذا لايضر أبداً...

- لايضر فعلاً.

- وحساء البازلاء مع الأحشاء؟ منذ فترة تملكتني رغبة لاتقاوم في تناول حساء البازلاء. وراحت عقيلتي تحاول إقناعي بعدم تناوله في مثل هذا الجو الحار، لكنني بقيت مصراً على ذلك، وكان حساءاً رائعاً.

- وهل أكلت منه الكثير؟

- كلا، صحنين فقط...

- وماذا يقول الطبيب؟

- لقد أخبرته بكل ماأخبرتك به، دون أن أخفي عنه شيئاً. فقال لي «لاذنب للطعام في ذلك، فأنت لم تأكل شيئاً ضاراً...». ربما الموالح هي السبب؟

- أية موالح؟

- من كل الأنواع... أم ربما اللوز، المغطس بالسكر هو السبب؟

- لو أن اللوز يؤدي إلى الحكة إذن لأغلقت كل دكاكين الحلويات منذ عهد بعيد...

- طيب من أين جاءتني حمى الشري هذه؟

- فكر مليا، ماذا أكلت في الأيام الأخيرة؟

لم أتناول أي شيء غير عادي. هل تعرف أنني فقدت شهية أيام زمان.. وإذا ماتناولت كمية زائدة مرة في مئة عام، فإنني أشرب اللبن الرائب بعد الطعام بهدف تحسين عملية الهضم.

- هل أكلت الخبز في الأيام الأخيرة ياعزيزي؟

- الخبز؟

- نعم الخبز

- أي خبز؟

- الخبز العادي، الذي يخبز في الأفران...

- الخبز طعام ثقيل، إنه يسبب لي السمنة. عادة أكتفي بكسرة من الخبز المحمص، كسرة واحدة فقط. أو قطعة صغيرة من «الصمون الفرنسي».. تذكرت.. لقد أكلت الخبز فعلاً. كان عندنا ضيوف، ولم يكن لدينا خبز افرنجي، وفي البقالية لم يكن ثمة خبز محمص، وهكذا فقد تناولت نصف رغيف من الخبز البلدي.

- كل شيء واضح... هذا هو سبب إصابتك بالحكة. الخبز البلدي لايناسب الجميع. لابد أن تعتاد عليه.. ـ هل أخبرت الطبيب انك أكلت الخبز؟

ـ كلا، نسيت... الحمد لله أنك ذكرتني. الآن عرفت سبب إصابتي بالشري.. كدت أسلخ جلدي. لو أنك رأيتني.

ـ الحمد لله أنك لم تأكل سوى نصف رغيف، فلو أنك أكلت رغيفاً كاملاً إذن لرحت ترفس، وتصهل كما الحصان.. داو نفسك، واشف بسرعة. أتمنى لك الشفاء العاجل.

ـ شكراً لك ياعزيزي.

ـ سوف أتصل بك مرة أخرى. إلى اللقاء.

ـ حماك الله، وحفظك ياعزيزي.

كيف تكتب المقالات

في الغرب تصدر الكتب، متعددة المجلدات، والمكرسة لتقديم النصائح والإرشادات في ميدان هذه المهنة، أو تلك.

ومؤلفو هذه الكتب خبراء مختصون، يشرحون لك فيها، بأسلوب مبسط ومفهوم، كل ماتود الإلمام به، بدءاً من طريقة إنتاج الورق، وانتهاء بكيفية الوصول إلى الحرية والديمقراطية.

والواقع أن هذا النوع من الكتب هو الذي دفعني إلى الشروع في عملي المتواضع هذا. فلقد خطر ببالي أن أقوم بوضع الإرشادات اللازمة لكتابة المقالة الصحفية. أعرف أن هذا الموضوع غير مناسب للمقالة النقدية الساخرة الأسبوعية، فالكتابة فيها تحتاج إلى عدة مجلدات، وحتى هذا لايكفي. ومع ذلك سأحاول، قدر المستطاع، صوغ أفكاري بهذا الشأن بكل إيجاز.

إذن كيف تكتب المقالات الصحفية؟ سوف تقولون: «الأمر في غاية البساطة. تخطر ببالك فكرة، فتأخذ القلم والورقة، وتكتب». أبداً فالقضية ليست بهذه السهولة. هل تريدون أن أخبركم بصراحة كيف أكتب المقالات في الصحف؟ إذن أعيروني آذانكم.

في كل صباح أقرأ الصحف، وكأي قارىء آخر يتعكر مزاجي، بالطبع، وأقوم بفرز أكثر مايعكر مزاجي جانبا، فيبقى حوالي عشرة، إلى خمسة عشر موضوعاً. هذا بالإضافة إلى أن لدي باستمرار أربعين إلى خمسين موضوعاً احتياطياً، كلها تهفو الوصول إلى طرف الريشة، لكن الاختيار يجب أن يقتصر على موضوع واحد... وبعد عذاب مضن، وتفكير ملي، أختار الموضوع الأكثر براءة، الذي لايلحق الضرر، لابي ، ولابصاحب الصحيفة، كما إنه لايمس أصحاب الأمر والنهي، لامن قريب، ولامن بعيد. أكتب بحذر، أزن كل كلمة، ولاأشاكس طيور الأوز.

أخيراً ـ المقالة جاهزة، لكن الأمر لم ينته بعد، فلدى الباب تقف لي زوجتي بالمرصاد

ـ هل أستطيع قراءة ماكتبت؟ ـ تسألني.

وسواء سمحت، أم لم أسمح، فإنها ستقرأ ماكتبت.

في أغلب الأحيان أحاول إخفاء مقالاتي عنها. لكنها ـ مع ذلك ـ تتمكن، بطريقة ما، من قراءتها. ويكفهر وجهها، وهي تقول:

ـ إذا كنت لاتفكر بنفسك، ففكر بالأولاد على الأقل.

ـ وماذا هناك؟

ـ ماهذا السؤال؟ هل يكتب مثل هذا في وقت كهذا؟

ـ طيب، وماذا أكتب إذن؟

وكبستاني محنك تروح زوجتي تقلم مقالتي: «إحذف هذا، بدل هذا، أما هذا فليكن كيت وكيت».

إنني أستسلم دائماً أمام زوجتي، وأرضخ لأوامرها.

وبعد فترة قصيرة يدخل ابني علي، بوجه متجهم:

ـ أبي!

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد كتبت في مقالتك...

ـ ماذا كتبت؟

ـ إنها حادة قليلاً...

ويكاد الشاب يذرف الدموع.

ـ إحذف الجملة الأخيرة ياأبي....

ـ لكن كل النكهة في الجملة الأخيرة، يابني...

ـ إحذف هذه النكهة ياأبي.

فأحذفها.

- أبي ... - يأتي صوت ابنتي.

- نعم...

- الجملة الأولى... يعني...

- ماذا تقصدين بـ «يعني»؟

- لو تحذفها...

وحتى هنا لاينتهي الأمر، ففي الجوار يعيش صديقي القديم، المحبوب، وهو محام. وللحال تهرع إليه زوجتي، أو أحد الأولاد، مستنجدين به: «هلا جئت، وساعدتنا، فلقد كتب مقالة جديدة». ويأتي صديقي، ويسأل ببرودة مصطنعة:

- ماذا لديك من جديد؟

وأمد له المقالة، فينكب على قراءتها، وهو لايكف يصحح نظارته، ويتنحنح. إنه يحمل قانون الجنايات في جيبه الأيمن، وفي الأيسر - قانون النشر.

- إن لديك هنا جملة... إن عقوبتها، كما هو وارد في القانون الجنائي، السجن لمدة عام.

فأحذف هذه الجملة.

- وهنا مكان آخر... بموجب قانون النشر يعاقب مرتكبها بالسجن لمدة عامين فأكثر...

وأحذف هذا المكان وغيره...

إن لديه أيضاً القانون المدني، وقانون الحراج.

فينظر في الأول، ويقول ـ احذف هذا، وينظر في الآخر ـ واحذف هذا أيضاً.

وأضطر إلى حذف هذا وذاك.

ذلكم نصف المصيبة، فلا يزال أمامي الحديث، الأكثر هولاً مع والدي.

ـ تعال فوراً ـ جاء صوته عبر الهاتف.

وقبل أن أجتاز عتبة الباب دوّى هزيم صوته:

ـ لقد بلغت الأربعين، ومع ذلك فلم تعقل.

بعد هذا «الترحيب» يبدأ العمل الأهم ـ يتناول القلم، الذي يروح يذرع مخطوطي جيئة وذهاباً، على إيقاع «احذف هذا، واحذف هذا» ويشهد الله أنني أخاف والدي أكثر من كل القوانين مجتمعة، ودون أي اعتراض أحذف كل ماأوعز بحذفه.

وبعد ذلك أحمل بقايا مقالتي المسكينة الى الصحيفة، لكن العذاب لايزال بانتظاري.

يقول صاحب الصحيفة:

ـ ألم تستطع أن تجعل النبرة العامة ألطف قليلاً؟

ـ رحماك، إنها في منتهى الليونة، كما راحة الحلقوم، وإذا مالانت أكثر فإنها ستذوب نهائياً.

ـ مارأيك في حذف هذا؟

ـ طيب.

ـ وتغيير هذا؟

ـ طيب.

لعلكم تعتقدون أن الأمر ينتهي عند هذا الحد؟ أبداً.

لو كان الأمر كذلك إذن لكان بوسع أي كـان أن يصبـح كاتباً للمقالة الساخرة. والآن جاء دور المحرر.

ـ يجب تليين هذه العبارة قليلاً.

ـ حسن، لكن كل العبارات اللينة استنفدت،ولم يبق منهـا شيء.

ونبحـث سـوية عـن العبـارة، الأكـثر ليونـــة، ثـم نقـوم بالتعديل.

ـ هذه الجملة تجرح السمع قليلاً. فلتعدلها كما يلي.

ـ طيب.

ـ عفواً هنا فقرة أخرى لالزوم لها أبداً.

ـ لنحذفها.

هل تعتقدون أن القصة انتهت هنا؟ ياريت.

فبعد ساعة يرن جرس الهاتف.

ـ حسان بيه!

ـ نعم.

ـ هل ورد في مقالتك اسم علي بيه؟

ـ نعم.

ـ لكن لدينا أحد كبار المسؤولين باسم علي بيه، فما العمل؟

ـ حسن، أستبدل به اسم مصطفى بيه.

ـ مستحيل، فمصطفى بيه يشغل منصباً أعلى.

ـ طيب فليكن نكرة.

ويرن الهاتف من جديد.

ـ حسان بيه.

ـ نعم.

ـ إنك تتطرق في مقالتك لـ ... بيه. ونحن نتلقى منه.....

ـ مادمتم تتلقون، فسأحذف هذا المقطع أيضاً.....

وهكذا لايبقى من المقالة إلا الفتات، وفي اليوم التالي تقرؤها على أنها مقالة ناقدة ـ ساخرة. فتشعر برغبة في الضحك لاتقاوم، وتضحك، وكيف لايضحك المرء من مقالات ناقدة ساخرة كهذه؟ أنا نفسي أضحك.

وفي اليوم نفسه تصل إلى الصحيفة رسالة تتهمني بالقدح والذم.

بربكم أليس هذا مضحكاً!.

كتب للمترجم

*** في السياسة:**

١ـ الصهيونية بين النظرية والتطبيق . ١٩٧٣

٢ ـ الصهيونية في روسيا القيصرية. ١٩٧٦

٣ ـ الصهيونية في خدمة الرجعية. ١٩٧٧

٤ ـ مصدر الأزمة الخطيرة. ١٩٧٥

٥ ـ الشرق أفكار ومفكرون. ١٩٨٨

*** في الأدب:**

١ ـ الملحمة الاغريقية القديمة. ١٩٩٤

٢ ـ الآلهة والأبطال في اليونان ١٩٩٤

٣ ـ ملك الكرة / رواية لعزيزنسين/

٤ ـ لاتنس تكة السروال. /مجموعة قصص لعزيز نسين/

٥ ـ رحلة المخاطر. ١٩٨٥

٦ ـ مذكرات زوجة دوستويفسكي ١٩٨٩

*** في أدب الأطفال:**

١ ـ الأخوة الثلاثة ١٩٧٧

٢ ـ الظلف الفضي. ١٩٨٨

٣ ـ مع الوحوش في أقفاصها. ١٩٨١

٤ ـ مغامرات ذئب. ١٩٨٧

٥ ـ الفدائي الصغير ١٩٨٦

٦ ـ مغامرات الجرذ واليربوع. ١٩٧٨

*** مسرحيات:**

١ـ العاصفة الرعدية — الكسندر أستروفسكي

٢ـ وظيفة مربحة — الكسندر أستروفسكي

٣ـ المفتش — نيقولاي غوغول

*** قيد الطبع:**

١ـ السماء تكشف أسرارها

٢ـ الفيزياء في الطبيعة.

عزيز نسين....

فعلا إنه أشهر من نار على علم، فلقد طبقت شهرته الآفاق، وأصبح اسمه، على الرغم من اشتقاقه من النسيان، على كل شفة ولسان، واتسعت جغرافية انتشار كتبه لتشمل كل قارات العالم، وتكلم أبطاله بمختلف لغات العالم الحية، يكفي أن يذكر اسمه حتى يرهف السامع أذنيه، كي لاتفوته شاردة أو واردة عن عزيزنسين، فنان الأدب الساخر، الذي رحل عن هذا العالم تاركاً موروثاً لايقدر بثمن، ومن بين هذا الكم الهائل اخترت هذه القصص العشر..

المترجم